عبد النور بونجّار
زنقة الكايرين
رواية
UNSEUL HEROS LE PEUPLE
تحيا الجزائر
ولاد العطاف
49
#أدليس

الإهداء

لكل الغرباء الذين مروا على زنقة الحايرين، للجدران الملطخة بالدم، للكلاب المسعورة التي تفيق على طلقات الرصاص، للعابرين على شرفات المباني القديمة، للكادحين في الحياة، لكل شخص فقدناه، للمجانين الذين اختزلتهم الحياة وقدمتهم قربانا للخراب والخوف، للحيارى الباحثين عن الأمل، عن العمل على كنف شوارع سوق إبراهيم.

مساء صغير على قريةٍ مهملة
وعيناك نائمتان
أعودُ ثلاثين عاماً
وخمس حروب
وأشهدُ أنّ الزمان
يخبّئ لي سنبلة
يغنّي المغنّي
عن النار والغرباء

وكان المساءُ مساء
وكان المغنّي يغنّـي
ويستجوبونه:
لماذا تغني؟
يرد عليهم: لأنّي أغنّي.
محمود درويش

ذاك المساء راح يطول ويطول لنعود عشرين عاما للوراء أين كان الدم هو العنوان البارز لجرائد المساء قبل الصباح، وكان الرصاص هو سيد الأصوات والزمن كله عبارة عن غدير راكد، عشرون عاما تمضي على ما اصطلح عليه آنذاك "عام المجازر".

اغصبوا... ازربوا...

صوت مختنق قادم من تحت شعبة لمياه المجاري...

اغصبوا موسى الشامبيط راه مطايش هنا راهوا يتنفس مزال حي.

يهرع نفر ممن كانوا يجلسون على حافة الشعبة إلى الأسفل فيحملون على أكتافهم جسد موسى الشامبيط المنهك والمملوء بالدم.

مقهى جوني، السابعة صباحا.

بدت زرقة السماء في ذلك الوقت المبكر رائعة تبهر البصر، وسبحت قطع السحاب المتناثرة في جماعات كعرائس أسطورية ترتدي ملابس شفافة ودبت الحركة في شوارع المدينة كما دبت في زنقة الحايرين وأخذت أبواب بيوتها تنفرج بين الحين والحين عن رجل يسعى ويدب فوق الأرض بقدميه مسرعا وطفل يحمل وعاءً يسرع به إلى بائع الحمص الذي كان صوته يصل من بعيد مناديا على بضاعته بصوت أجش أو امرأة تطل برأسها منادية على عمي الحسين بائع الحليب... أما موسى الشامبيط جالس يقلب رجله الاصطناعية بصعوبة فتارة يمددها وتارة يركلها ليصيح وجعا، يخرج من حجرة سترته الصيفية أدوية الضغط والسكري، دمعات الألم تتساقط على وجنة خده المبتلة، لحظة غفلة وتنهيدة حسرة، تنطق الشفاه بكلمات تختزل معنى أن يخبئ المرء معاناته في صدره، يا وليدي من الصباح وأنت ساكت انطق بكلمة بزوج أقلقني سكوتك، خبروني عليك بزاف تذكرني في بَرَّقَعْ الله يرحمو مسكين، سمعت أنك تكتب القصص وتنشد الأشعار، لمَ لا تكتب عن هذه المدينة البائسة التي تسكننا، يردف مبتسما عائدا بذاكرته كنت أنا وبعض الأصدقاء ننشط في دار الشباب، نكتب ونطالع الكتب ونحيي السهرات الشبابية، لقد تغير كل شيء منذ أن رحل من كانوا يسهرون على تربية الشباب، كان الشارع يربي والمقهى يربي وحتى الملاعب تربي، لقد كانت أياما جميلة كم اشتقنا لتلك السنين، تلك الكتب باللغة الفرنسية لا أدري إن كانت لا تزال هذي مدة مدخلتش لميزون جان، بعد أن أنهى سيجارته العاشرة وهو ينتظر موح كلش "المناڤري" في مقهى جوني الواقع وسط مدينة سوق إبراهيم والمطل على أزقة المدينة، حديث منقطع واتصالات كثيرة رفض الإجابة عن معظمها، فبعد عشرين رشفة قهوة مرة واستهلاك علبتي مالبوروا فاخرة أتى موح كلش وهو يجر شنطة العمل، يسلم علينا ويرتشف قهوة موسى الشامبيط، هذا الأخير كان أحد الرجال الذين سهروا على حماية المدينة من جماعة الضمير الأعور سنوات الجمر والنار، موح كلش هو الآخر كان يجتاز الخدمة العسكرية وفي خضم الحرب الهوجاء استنجد به كمحارب، فوجد نفسه مكافحا ووجها لوجه مع الخارجين عن

القانون، يتشابهان في الذكريات والآلام ويتقاسمان علقم الزمان والأيام، تمر السنوات وتبقى الندبات محفورة في وجوه من عايشوا تلك الحقبة، كل شيء، كل شبر، كل قصة تذكرهم بذاك الماضي الأليم وتشد على قلبهم غصة حارقة ترجعهم إلى تلك السنين.

دوار سانسوا.

الخميس 30 جوان 2020.

في هذا المساء فكرت أن أنسى الموت بشهوة الكتابة، لفحات الشمس الحارقة وعدم اكتمال عملية البناء في وقتها أجلت زيجة أخي الأكبر إلى صيف آخر وربما إلى عام آخر إن ظلت الجائحة مستمرة، زاد الطين بلة حكايات موح كلش وذاك الماضي الأليم الذي لم أعرف منه إلا تلك الحكايات التي تنطق بها ألسن الكبار هنا عندما تأتي الذكريات على مصب التاريخ أو حادثة تذكر الناس بسنين خلت لتعيد الأهوال إلى تاريخ قديم.

لقد تغير الحي اليوم، وعشرون سنة رحلت ليدرك الحياة من جديد ولكنه مثقل بالأسرار التي ظلت حبيسة لديه، ولن نتخلص منها مهما حاولنا الإفلات، إنها أقوى من شهواتنا وإرادتنا.

هدأت كل العواصف بما فيها عاصفتا الحياة والخوف وأصبح بالإمكان لمس الأشياء الغامضة بمسافة أكثر وبكثير من الوضوح.

نحن الآن في طريقنا إلى البيت، فبعد أن انتهت الحرب وسكن السلم عمل كل من موسى الشامبيط وموح كلش عمال بناء من أجل قوت يومهما، أضحى موح كلش يعمل أي شيء من أجل أن يعيل عائلته الكبيرة، عجز أخيه الكبير المقعد، وأم تحن للرحيل عن الدنيا أما الزوجة فرافضة وضعها الدامي تقتسم ضيق البيت ومرارة العيش في عائلة تئن من الفقر، تمر الدقائق كالساعات حين راح يقص عليّ ملحمة عشرية سوداء ضربت أعماق زنقة الحايرين، تنهيدة وحسرات في كل مرة نصل فيها إلى مكان إلا ويذكر اسم شخص ثم يترحم عليه، ايييييه الله يرحمك يا قدور كان راجل، حمو الخائن غدرك، عرفت من الوهلة الأولى أن كل زاوية في هذه المدينة

تخبئ حكاية ورواية، البطل معروف والخائن فيها معروف أكثر، قصص رسخت في أذهان من عايشوا تلك الحقبة الدامية، يمران على شارع الوئام، يسلمان على دق الكابران وهو هائم بفتل سيجارة الحشيش بيد واحدة بعد أن فقد الأخرى في ميدان المعركة، تنهيدة موح كلش أنهت الكلام وعمّ الصمت، لقد تغيرت الظروف لكن تلك المشاهد على مرأى البصيرة لم تهدأ، أردف موسى الشامبيط استغفر يا صديقي استغفر، نحن مجاهدون فات لي فات ما يبقى في الواد غير حجارو، ما أشد على المرء أن لا يودع أحدا وألا ينتظر أحدا ويخونه الجمع والأصدقاء.

لقد وصلنا، بهذه الكلمة قطع موسى الشامبيط حبل الصمت الذي امتد كامل الطريق المزدحم بالسيارات وراح يقول ساخرا، هنا قبل تلك العشرية السوداء كانت هذه الأرض فارغة، كان يعيش فيها الحلوف قبل أن تمتلئ بالغرباء وهذه الأبنية المتلاصقة الحديثة، سكنها المتمدنون الجدد... باستهزاء يرد عليه موح كلش "واش معجبناكش كي هبطنا من الدشرة وسكنا عندكم يا موسى" قاطعه موسى غير آبه بغضب أخ زوجته، الجو جميل اليوم وتلك السحب بدأت تغازل السماء، الشمس تارة تغيب وتارة تظهر، إنه مشهد رائع في نهاية كل يوم، كلماته لملمت غضب موح كلش وراح يخبئ ذاك الحزن وتلك الكلمات الجارحة التي لم تكن كلمات صهره وفقط، بل في كل مرة يسمعها من أبناء من يسمون أنفسهم ولاد البلاد أما النازحون من القرى فلم ينس الناس أنهم غرباء رغم مرور عقدين من الزمن، ابتسم موح كلش ثم استند إلى حائط وأطلق العنان لمخيلته، نتحسس الجراح، شيء سمعناه وشيء نتخيله وراح يقص بصوت خافت تكاد تسمعه.

مرت عشرون سنة يا نسيبي لعزيز، نعيش في تلك القرية الهادئة، نفلح أرضنا نسقي الحرث ونسوق مواشينا، نتسوق سوق إبراهيم من أجل أن نبتاع قوت شهر لنعود إلى الدوار كما تسموه أنتم، كم كانت الحياة هادئة نتزوج بعضنا البعض، نعيل بيتنا ونأكل خيرات ما تنتجه أرضنا من بقول وحمضيات، كان أبناء المدينة كما يزعمون يأتون إلى القرى من أجل الاستمتاع باخضرار الطبيعة وهدوء المداشر، تقاليدنا معروفة، الحرمة

والشان يا موسى، تلدنا أمهاتنا بلا طبيب ودون ظروف صحية، كانت الجدات تحضرن الأدوات الطبية والماء الساخن للولادة، وقتها كنت صغيرا جدا عندما شاهدت جدتي تحضر ذاك السكين الموضوع في نار ساخنة، قبل أن تقطع الحبل السري لأخي الطاهر، هذا الأخير مرّ عليه عام فقط ليظهر عليه شحوب في جسمه النحيل واعوجاج في رجله الأيسر، تأخر العديد من الآباء في تسجيل أبنائهم في دفتر البلدية بسبب عسر الطريق أو اغتنام نزول أحدهم إلى الفيلاج فيرسلون معه الأسماء وتواريخ الازدياد، وإن مر الشهر ولم يجدوا ذاك الشخص قد ينسى الأب ازدياد ابنه لسنوات كثيرة فالعديد من أبناء قريتنا لم يحالفهم الحظ في دخول المدرسة بسبب الأوراق الثبوتية، عشرون سنة لم نعرف من المدرسة إلا تلك البناية التي لا يأتيها الأساتذة بسبب عسر الطريق الترابي الذي يصلنا بهذه المدينة، توقفت الدراسة وأحلت أنا وبعض أبناء عمومتنا وكثير من أبناء قريتنا إلى الأمية المسبقة فلولا الخدمة العسكرية لما تعلمت الحروف والكلمات والحساب، إلى أن أتت جحافل الغدر وأحرقت المحاصيل وتلك الأكواخ التي هي في الأصل منازلنا، كنت حينها ابن العشرين سنة، لم نقدر على مجابهتهم، كانوا يقتلون، يحرقون. غادرنا القرية وزحفنا إلى المدن، حين وصلنا إلى سوق إبراهيم تم تجنيدي للخدمة العسكرية، لم أعرف حتى أين استقرت عائلتي، حتى عدت من العسكر، تلك المشاهد المحزنة وهو يرتدي بدلته العسكرية، أتت على مصب الذاكرة دون هوادة، يردف قائلا تعلمنا السلاح والدفاع في شهر تدريب مكثف، صحيح أنني ابن الجبل والطبيعة، لكن ما إن وصلنا إلى تلك الجبال تغير كل شيء، صوت الرصاص لم يصمت، بتنا نحسب لصوت غدير الماء وخشخشة أوراق الشجر ألف حساب، نترصد ونعرف الصديق من العدو من سماع الأصوات فقط، وإن مر الليل نترقب ليلة أخرى كسابقاتها، إنها أيام مرعبة يا موسى، كنا وقتها نأكل كل شيء، وأحيانا نشرب ولا نأكل لأسبوع، نجابه الخوف، الموت وميلشيات الغدر، أحيانا أجلس لبرهة أسأل نفسي ماذا أفعل هنا هل أنا ضحية صراع لا يعنيني، أم نحن حقا في حرب طويلة الأمد، كم سنخسر من أرواح حتى يصمت

الرصاص، وكم يحرق الغاضبون خيرات الجبلين ليرتاحوا، اغتصاب مجازر، مزارع مخربة، كلها مشاهد تقابلك وأنت تسرق تلك النظرات إلى سفوح المدينة وما خلفته الحرب.

هنا
عند مُنْحَدَرات التلال
أمام الغروب وفُوَّهَة الوقت
قُرْبَ بساتينَ مقطوعةِ الظلِ
نفعلُ ما يفعلُ السجناءُ
وما يفعل العاطلون عن العمل:
نُرَبِّي الأملْ.

أعود أدراجي إلى الثكنة الموجودة في أدغال الغابة، يسألني جلول السارجان أين كنت وينهرني آمرا: جهز نفسك وعدتك لدينا جولة استطلاع، كنا نمشي في هوادة خوفا من أن تلمس أقدامنا لغما لم ينفجر، فجر طويل فقدنا فيه الفرد تلو الآخر ننتظر دورنا كجثث حية تنتظر أن تزف شهيدا، إيه خويا لخضر كانت عندو سمانة ملي تزوج، كي رجع للجبل عاد إلى زوجته شهيدا بكفن ملطخ بالدم.

دق موح كلش مسمارا في اللوح، وراحت دمعته تسبقه وهو يتذكر قصص من ماتوا، من شردوا، من اختفوا ثم عادوا، لقد أصبحت أعمل أي شيء، أبيع الجرائد صباحا، أكنس واجهات المحلات والمقاهي، وأنام ليلا على وجع أخي الطاهر وآهات أمي التي لا تهدأ وفي الصباح أعيد زوجتي الرافضة لوضعي القاسي، ليقاوم الدمعات التي ارتسمت في عينه قبل أن يتركها تنهمر، يترنح إليه موسى برجله الاصطناعية ليضع رأس موح كلش على كتفه، فجأة تسمع صوت النحيب ليندهش موسى ويحاول ممازحته يااا راجل، وتبك يا موح، يرفع موح رأسه ويجيب بتمتمة هادئة الله يلعن أبو البكاء الرجل الذي لا يبكي حيوان تيس بغل بلا شعور، ابتعد موسى الشامبيط وراح يضع الملح فوق الجرح حين بدأ يذكر قصص الناجين من مجزرة وقعت على ضفاف الأودية، تلك القنبلة الموضوعة في سيارة

مفخخة، وذاك الحاجز الأمني المزيف، كانا أسوء ذكرى له عندما كان حارسا بلديا، ايييه يا وليدي كم هي القصص كثيرة، أهدر شويا معانا راك مقلقني مصباح نتا.
يردف موح كلش بسخرية أظن أن هذه المدينة مدعية ليمسح بقايا دمعه وسيلان أنفه، لتعلو الضحكات بينهما كأنهما يريدان تغيير الموضوع.
نظر موسى الشامبيط من نافذة الشرفة إلى شوارع مدينة سوق إبراهيم وتلك الأضواء المتداخلة والتي بدأت في الاشتعال في هذا المساء المدفون في الظلام الداكن الذي يختم رأس البنايات القريبة من دوار سانسوا.
كأنها اليوم، عشرون عاما تمضي على تلك الفترة السوداء من سنوات الجمر التي اكتوت بها المدينة وضواحيها وكانت مسرحا لأبشع العمليات الإرهابية من تقتيل وذبح وتنكيل وغيرها من الصور اللاإنسانية التي خلفتها أيادي الغدر الهمجي التي أتت على القرى قبل المدن والتهمت أي شيء يقف أمامها.
هنا يتشابه الصباح بالمساء، تتشابه فيه الأيام، ولا تزال الصرخات تسمع صامتة، مغتصبة لا نقوى على تحمل آهاتها، يكسر تفكيري اتصال موح كلش بصديقه البشير، هل وجدت عملا يا البشير؟ اسمعني موح السكليست افتتح صال ديفات اذهب اشتغل رقاصة ههههه، ثم يغلق موح كلش المكالمة ويخر موسى الشامبيط ضاحكا متهكما على رقصاته الغريبة ويتذكران أيامهما الخوالي في بار السات، إنها أيام جميلة يا موسى، إنها كذلك، إنها كذلك...
شعب قوي يعرف كيف يتخطى ذاكرته بابتسامة، لتظل سوق إبراهيم تحكي بداية الرواية.

على كتف الذاكرة

محجوبة... أول قتيلة في المدينة.

رمضان سنة 1997.

على جثث الكادحين في الحياة، طريق طويلة تنتهي بندبة، بكنيسة محروقة، بدور عبادة مهجورة، وظلال تعتصر حزن ليلة دامية، صوت الرصاص أصبح له لحن خاص، صور عويل النساء تغزو المكان، أما القلوب أصبحت حيارى تقلب عن وجوه كانت بالأمس هنا، أما مقهى "جيراس" الواقع على الضفة الأخرى من الرصيف، يكتظ بسكان المداشر والأحياء البعيدة عن وسط مدينة سوق إبراهيم، هذه الأخيرة تبك جثث من رحلوا البارحة ووجدوا على ناصية وادي "بوقلي" وتبكي أيضا من سيرحلون ما دام الوضع قائما على من يقتل أولا، وما دامت ماكينة الدمار تشتغل فلن تسكن المدينة للراحة.

أجواء رمضانية مرصّعة بالخوف، جلبة السوق وانتظار أذان المغرب من جامع السلام، ترى من بعيد طريقا فارغا ورجال الباتريوت يطوّقون المكان، هاجس القتل في آخر أيام رمضان وصباح العيد أعيد مرات لسنوات مرت، يراقب موسى الوضع حزينا لا يقوى على مجابهة خوفه إلا بدموع تسبق عينيه بالنزول، فقد أباه في سن العاشرة وأمه غادرت الحياة بصمت هي الأخرى ليرتمي في حضن مربيته التي رمت حمله على كتفها وراحت تعلمه دروس الحياة، يدخل الحاج بلقاسم محملا بألبسة وألعاب العيد ليسرع موسى إلى حجر الحاج بلقاسم الذي يعتبر موسى ابنه وهو الذي لم يرزق

بالأولاد قط، تراقبه من بعيد الحاجة محجوبة بنظرة فرح ممزوجة بحزن داخلي يعتصر رحمها العاقر، الله يرحمك يا علجية ولدتي موسى ورحلت بلا حس، يذهب موسى مع مربيه الحاج بلقاسم إلى مسجد السلام لصلاة العيد باكرا، ترى من بعيد جموعا غفيرة أمام باب المسجد يقرؤون إعلانا كان ملصقا على جدار المسجد وأمام تلك الجلبة اخترق الحاج بلقاسم الجموع لينتزع الإعلان ويمزقه أمام حيرة الحاضرين وهرولة حمو البياع بعيدا ومسرعا وهو المعروف بإفشاء أسرار القرية لجماعة الضمير الأعور المتمركزة في حي الطابية، انتهى الجميع من صلاة العيد وتقاسمت النفوس التحية والسلام حتى سمع طلق للرصاص وجلبة أمام مدخل المسجد، إنهم جماعة أبو ليلى يطوقون المكان دون أي تصد للسكان ويقتادون الإمام إلى وجهة مجهولة تحت هتاف السكان وبكاء الطفل موسى، تركله رجل قوية وتبعده عن طريقهم ويهيمون بالمغادرة، ليعود في المساء حاملا ملابسه الممزقة.

طفل عاش الأزمات تلو الأزمات، رضع الخوف وشرب علقم الزمان وكبر الغل والحقد في نفسه البريئة وصار وحشا لا يعرف للرحمة مجالا، اليوم هو في العشرين وصار كالشباب، كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة وُجد غريبا يوماً وكانت سماء الربيع تؤلف نجماً ونجما. تغير اسم موسى وكنيته اليوم موسى الشامبيط بعد دخوله إلى كتيبة الدفاع الذاتي لحماية المدينة من جماعة الضمير الأعور، جاء لينتقم لتلك الهجمات التى أثقلت يوميات مدينة بائسة وفقدان أبيه وأمه جراء الخوف والهلع.

مع فريقه يجوب الأحياء البعيدة عن مدينة سوق إبراهيم لكن القدر يسوقهم إلى قدرهم المحتوم ، جلبة داخل الحي وحركة مشبوهة تبعها موسى الشامبيط ليسمع طلقا للرصاص وعويل النساء يغزو المكان وأشخاصا بلباس رث يفرون واحدا تلو الآخر وكأنهم ظلال تعتصر الليل الداكن، يفتح رشاشه في السماء والفراغ ضيق مسالك القرية وتلك الأصوات المتصاعدة من البيوت أربكته في تحديد مكان الجريمة، ضيق المسالك زاده ضيقا في صدره وكأنه بوصلة تقوده إلى بيت مربيته، يصل موسى بيته ليجدها غارقة

في دمها، يحملها موسى على ظهره مهرولا في كل مكان نتيجة الصدمة التي جعلته مجنونا يركل كل شيء أمامه عسى أن يلحق بها إلى الديسبونسار، لكن كتب لورقة محجوبة أن تسقط من شجرة الحياة من طرف جماعة إرهابية قامت بقتلها ببيتها، يتوقف موسى لبرهة ليجثو راكعا يضع القتيلة أمامه ويقبل جبهتها ويغطيها بثوب أبيض لتكون أول قتيلة في المدينة، حزن اعتصر قلبه وهو ينظر إلى محجوبة وكأنه يؤنب ضميره وتقصير حمايته، لقد أتته أخبار استهدافها بعد انتشار دعايات حول نشاطها المشبوه في الشعوذة، لكنه لم يهتم لتلك الدعايات المغرضة التي تزيد من غليانه وهو المعروف بأعصابه الساخنة، وهو ما دفع الجماعات الإرهابية بقتلها، بعدما بلغتهم أخبارها من جواسيس ومخبرين كانوا ينشطون في كل القرى.

حرقة ما حدث في تلك الليلة السوداء مع الفقيدة وما تبعها، صدمت أذهان الناس، رغم أعمالها غير الطبيعية والمؤذية لكن كانوا يرونها أحق بالتوبة لا قتلها وسفك عرضها وتركها منثورة بكفنها الأبيض، محجوبة افتتحت عداد القتلى والعمليات الهمجية على القرية.

في صباح يوم العيد وغير بعيد عن بيت محجوبة قامت تلك الجماعة أيضا بالتوجه قبيل صلاة الفجر إلى مسجد الفرقان وعبر المكبرات قاموا بتهديد السكان بسم الله والله أكبر اسمعوا يا أهل المدينة، حنا رانا ندعوكم باه تبايعوا أميرنا وخلوكم من المير وجماعتو رانا خبرناكم ولي ميسمعلناش راكم تعرفوا المصير نتاعو، وغادروا المسجد دون أن يقربهم أحد، أمام دهشة موسى الشامبيط لجرأتهم للعودة مرة أخرى، خاصة أنهم احتجزوا إمام المسجد الحاج بلقاسم، الذي كان مصيره تلك الليلة الجلد والضرب بسبب تمزيقه لإعلان كان معلقا بالمسجد فلم يبرح الحاج بلقاسم يمزق إعلاناتهم طيلة تلك السنوات وهم يحتجزونه ويعذبونه كما فعلوا في الماضي.

عرف وقتها موسى أنه هو الهدف القادم وأنهم الآن ينتقمون منه بسبب عدم مواكبتهم وتركهم يفعلون ما يريدون داخل أزقة المدينة، قتل خالته

محجوبة وتعذيب عمه الحاج بلقاسم لم يكن إلا تهديدا غير مباشر له وفقط ما زاد غليانه وبدأ في البحث عن حمو الخائن المختبئ في حي الطابية غير البعيد عن وسط مدينة سوق إبراهيم.

جثث أصبحت كأنها أكوام ثلج منثورة على قمم البؤس والشقاء، وليل طويل لا يسع لإحصاء الخسائر التي خلفتها أيدي الغدر والدمار، توقفت الحياة وأصدرت التعليمات وكثرت الحواجز الأمنية وأعلن حظر التجول من المساء إلى الصباح، صوت أذان الفجر لم يسمع منذ عشر سنوات، بسبب الخوف والحظر، المنازل أضحت مراكز للولادة أما العجائز أصبحن في تلك الليالي قابلات، السهرات الرمضانية غابت عن مدينة سوق إبراهيم منذ أمد، حكايات "عمي جلة" التي تطرب آذان العاقل والمجنون اختفت وأصبحت مجرد ذكريات لمقهى الحرية الواقع على شارع "زنقة الحايرين" هذه الأخيرة أصبحت مدينة المقاهي فبين مقهى ومقهى يوجد مقهى، مقهى جوني، الأحباب، جيراس والحرية، كلهم أماكن أضحت مكانا مفضلا للمتشردين الذين يجدون أنفسهم في مكان لا يعرفهم ولا يعرفونه، فيلجؤون إليها أين يجدون بعض أكوام الزبالة فيقتاتون على مخلفات الليلة الماضية، موسى الشامبيط وفريقه يحمون المدينة من الداخل بقلوب ملؤها الأسى بعد أن ذاق هو وفريقه كل أسباب فراق الأحبة بعد أن تم تحويله إلى وسط مدينة سوق إبراهيم في مدخل زنقة الحايرين أو مكان المتشردين ولمن باعوا ذاكرتهم بثمن بخس دراهم معدودة من أجل أن يعيشوا وفقط، هنا تتداول الفصول والشهور شتاء، رياح الخريف، نسمات الربيع وحرارة الصيف الحارقة، مدينة المريض فيها يموت قبل أن يصل إلى المستشفى، والمجنون فيها عاقل يعرف متى يعيش ومتى يغرق في تفاهة، مدينة تستقبل المتشردين كل صباح من سيارة بيضاء ترمي بهم في الشارع الرئيسي، بلدة أقل ما يقال عنها أنها سوق المجانين، هؤلاء همشهم المجتمع وقدسهم التاريخ، على طول الشارع العام الذي ينتهي بمفترق طرق يتقابل التناقض، هنا مسجد وهناك كنيسة، يصطف المجانين الجدد ليأتي من سبقوهم للمكان، فيتصارعون على من يرحل أولا، في سخرية الزمن يأتي "بوسرارف"

زبال البلدة لينظف الرصيف من مخلفات البائسين، يجلس برقع، جيلالي بلو شماطة، لانجكتور، تشابلا وآخرون على مرأى المارة، أحدهم يفترش الأرض، وآخر يجالس الشيوخ في مقهى الحرية، وثالثهم يدك أكوام الزبالة باحثا عن شيء يأكله، وخامسهم يفتخر بجده القايد الذي عندما يراه المجانين يهربون من سوطه وهو راكب البغلة البيضة أما ثامنهم فينبش تاريخ العائلات المحلية ليجد نفسه في مواجهة الشرطة بعد أن فضح حركي بياع فرنسا، نونو بينيطو الرسام الذي ما فتئ يرسم تاريخ المدينة على جدران المدارس، أصبح في ليلة سجينا بعد أن اتهم بتشويه المنظر العام والتشهير برئيس البلدة الذي حرمه من السكن، والنمس سارق مكبرات الصوت لم يجد سبيلا لإحياء سهرة حفل زواجه في آخر ليالي رمضان إلا سرقة ميكرفون المسجد، متحديا الخوف والخطر، مستغلا خلو المسجد من المصلين الذين أصبحوا لا يرتادون المساجد إلا مرات قليلة، وجانيتو التي بكت البارحة من قهر زوجها أنجبت منه اليوم الابن العاشر في ذاك الكوخ الخشبي، ليجود عليها بائع الخضروات ببعض الخضر والفواكه رغم الحزن والخوف، فشهر رمضان كان مثالا للتآخي والتعاون بين سكان مدينة سوق إبراهيم ومن يأتون من المداشر والقرى المجاورة من أجل البحث عن العمل، والبعض لبيع ما تنتج الأرض من بقول وحمضيات، فيجدون نفسهم حيارى ينظر بعضهم إلى بعض متشبعين من مظاهر البؤس والدمار والحرائق، مدارس محروقة، بنوك منهوبة، سيارات مشتعلة، وعائلات تفترش الحصير على طول زنقة الحايرين، يقف موح كلش في مفترق طرق يراقب الوضع العام بحيرة ما بعدها حيرة، يهرب كل صباح من حي الطابية ومن أهواله بعد أن عاد من الخدمة العسكرية محملا بآهات وذكريات حرب هوجاء وكذا حاله بعد العودة حين اختطفته جماعة أبو ليلى بسبب تعاونه مع العسكر، ظروف لا يعلم بها سكان المدينة أملا في عمل يتخطى به آلامه العصيبة ليصدم بغرابة أحداثها، أضحى الكل هنا حيارى، البطال موح كلش سئم الانتظار بعد أن فاتته فرصة الظفر بعمل فينتظر حائرا هل يبقى لوقت إضافي أم يعود إلى الحي، فالمار على الزنقة، تأتيه جحافل الاستغراب من

الوضع متتابعة، براءة أطفال خسروا مستقبلهم بعد أن أحرقت آلة الدمار المدارس، وتلك الوجوه التي تبصر فيها تراكمات البؤس الجماعي للحشود البشرية التي تبحث عن مصيرها الغامض في هوامش عشرية ألمت بالبلاد، كان حجم الحزن كبيرا في قلوبهم قبل أن يظهر في عيونهم، ووجوه جديدة كأشباح تغرس الوهم وتتوارى في كل ليلة دون طائل، وذاك البريق المتلألئ في نظراتهم الشاردة، إنه وهج البقاء وشغف الحياة، أن من يسكن مدينة سوق إبراهيم، هم أولئك الذين أجبرتهم الظروف على تحمل البؤس، الشقاء، الخوف والفقد، أجيال ترث أجيال، وكل جيل مثقل بالخيبة والهزيمة، يلعنون عشرية فقدوا فيها الأهل والأصدقاء، أما الوضع العام بنية محطمة، أرصفة مهترئة، بنيات موروثة من عهد العجوز "فافا".

الجمعة من كل أسبوع

صوت المكبرات تعلوا المكان، سيارات ومركبات تصطف على المدخل الغربي للمدينة، إيذانا بافتتاح السوق الأسبوعي، هي فرصة الشاب موح كلش للظفر بفرصة عمل، حراسة الباركينغ هو عمل كل شباب المنطقة، وأحيانا يمتهن حمل البضائع إلى سيارات المشتري، الأطفال زكريا، محسن، نجيب، أطفال يتامى يعرفهم العام والخاص، يبيعون البيض المغلي وسط السوق، فتجد الباعة يشترون منهم لمساعدتهم خاصة أنهم بدون مأوى يفترشون الأرض بعد أن زحفوا من إحدى القرى التي أحرقتها أيادي السفاحين، فهرعوا إلى المدينة أين يجدون الأمن والأمان، هؤلاء هم سليل الألم ووريث اللعنة، ليبقى موح كلش شاهدا على أولئك الأطفال الذين عجنت أيديهم بتراب المكان، والتهبت أجسادهم بالحزن والشقاء، شاهدا على أزمنة الظلم والفقر والضياع، وبين مشاهد الحزن تقابلك تلك الحشود تجتمع على طاولة "باداين" الذي يمتهن ألعاب الحظ واليانصيب والقمار، وهو في الحقيقة يمتهن الخداع فتارة تفوز وتستمتع بالفوز حتى يأخذ منك كل ما جمعت في ثانية طمع، يشارك موح كلش باداين عملية النصب على الناس ويقتسمان المال في نهاية اليوم، الكل هنا رجال، أطفال، شيوخ، عجائز يلهثون في متاهتهم التي تسمى سوق إبراهيم، يطلقون صرخات استغاثة في

أنفاقهم المظلمة، فالعجوز "حليمة القدرة" تبيع صوف الخرفان في "طحطاحة القايد" وتجلب معها بناتها الأربع من أجل البحث عن الزواج فتعدن خائبات رغم جمالهن، إلا أن ذنبهن الوحيد فقر عائلتهن، وأبوهن الذي ألقت عليه الشرطة القبض بتهمة دعم جماعة أبو ليلى التي كانت تستقر في جبال "تمولقة".

ترتسم على وجوههم وانحناءات ظهورهم قصة «الصبر من أجل لقمة العيش» وأغلبهم تجاوز «عتبة الستين» من العمر، قضوا نصفه في حمل بضائع أصحاب المحلات والزبائن، بأجور زهيدة وأجساد قوية ليجنوا «راحة البال والرزق الحلال.

كان عدد الحمالة في السوق محدوداً، ومع مرور الأيام ازدادت أعدادهم ما أحدث نوعاً من الوفرة ففي مختلف الأوقات والأماكن تجد عمالاً «جاهزين للمساعدة» أو ينتظرون أصحاب المحلات والزبائن لحمل بضائعهم، إلى جانب مهنة الحمالة داخل السوق إذ لديهم صفة رسمية تخولهم للعمل في السوق، من دون رواتب شهرية ثابتة فهم يعتمدون في عملهم على «كرم الزبون»، وعلى كسب أكبر عدد من الزبائن، باعتبارهم يقتاتون من المبالغ التي يحصلون عليها، والتي تزدهر في المناسبات الوطنية والأعياد وتبلغ ذروتها في شهر رمضان، حيث تكثر المشتريات والصدقات أيضاً، ليجد محسن أن مدخوله الإضافي وصل إلى قرابة 4 مائة دينار في الشهر الفضيل. أما الآن فالعمل أقل وتيرة. تبدأ

دورة العمل بعد صلاة الفجر بعد أن يشرب «كأس شاي» يعده هو أو أحد زملائه قبل أن يرتدي سترته الخاصة ويجهز عربته ليبدأ رحلة البحث عن «زبون يحتاج مساعدة»، قد ينتظره في أروقة السوق أو أمام تجمعات الزبائن، أو ينتظر من ينادي عليه من دون فقدان للأمل، فالسوق يمتلئ برواده في مثل هذه الأوقات و«الرزق على الله».

وما زاد البؤس شقاء، بطالة أصابت جل شباب المنطقة وخوف أصاب أفئدتهم من المضي نحو الزواج.

عرس لويزة ومحند أجل العديد من الزيجات التي كانت ستحدث بعد أن تم اغتيال العروسين، تهمتهما الوحيدة أنهما زارا ضريح أحد الأولياء الصالحين في المنطقة مما أثار غضب تلك الطائفة وقاموا بتصفية موكب عرس في مهده، فئة تكفر بكل شيء، تظن أنها لديها الحق في محاسبة الناس والسكان إن خرجوا عن طاعة أميرهم، وقتل إمام في منبره إذا دعي لولي أمره في صلاة الجمعة، هذا ما حدث لإمام مسجد السلام الحاج بلقاسم الواقع في نهاية زنقة الحايرين، أين كان هائما بالخروج من بيته لأداء صلاة العصر، باغتته طائفة الضمير الأعور لتطرحه صريعا وتتوارى عن الأنظار، إنهم قتلة لا يرحمون، إنهم أشباح ترتدي الظل الظهيرة وتسكن الليل، جبناء صنعوا لأنفسهم قوقعة تعرف القتل، لا تفرق بين الصبي والشيخ العجوز، إنهم قوم الجوع والمذلة.

حي الطابية.

حي المنفيين من الحياة ونفوس تئن، هو العنوان البارز لصباح السكان هنا، زادها هجرة الرجال إلى المدن القريبة من المدينة للعمل أو طلب العلم، لكن يبقى السؤال بارزا للعيان أين ذهبت كل تلك النساء؟ لا أحد يريد أن يعرف، لا أحد يريد أن يتذكر.

كل ما احتفظت به الذاكرة الجماعية هو القتل والتفجيرات، حيث يتساوى جميع الضحايا، لا أحد يريد أن يتذكر من تم استهدافهن لأنهن نساء. الجميع يهرب من حقيقة أن النساء كن أول القرابين.

النساء العاملات والنساء غير المحجبات والنساء اللواتي يعشن دون رجل مع أطفالهن، النساء اللواتي سرقن الوظائف وتسببن في البطالة، النساء اللواتي يخرجن إلى الشارع دون سبب ودون غطاء للرأس ويجلبن اللعنات على المجتمع والكساد والفقر.

تسقط آلاف القصص طي النسيان عمداً، جميع الخطابات اللاحقة، على ندرتها، تتفق على سردية موحدة: القتل طال الجميع، دون استثناء من دون ذكر تفاصيل تحرج مجتمع الفضيلة الذي يغمض عينيه كي لا يرى «الفضيحة التي طالت شرفه».

لماذا عدتِ؟ كان يجب أن تموتي...

يعلو صراخ خارج البيت لقد عااااا لقد عادت العالية. يهرول موح كلش خارجا لترقب عينه أخته العالية واضعة لحافا أبيض على جسدها المتآكل من جراء العنف الجسدي وذاك الوجه المنتفخ بالكدمات. معها رجال أمن من الباتريوت يقودهم موسى الشامبيط حاملا طفلها الذي وضعته منذ أيام فقط.

عام على مغادرتها البيت نسيها الجميع وتناساها أخوها لتعود اليوم محملة بابن لا تعرف نسبه، كانت ليلة المشؤومة حين اختطفها أحد جماعة أبو ليلى واغتصبوها لتعود بلا شرف فتغادر بعدها دون رجعة.

لماذا عدتِ؟ كان يجب أن تموتي، هكذا استُقبلت العالية من قبل أخيها الطاهر ودهشة موح كلش وهو يرقب موسى الشامبيط وتلك الابتسامة الساخرة وهو الذي كان يركل طاولة القمار داخل السوق الأسبوعي كأنه يقول لموح كلش طحت في يدي يا وحد الباندي.

في الكثير من الأحيان، قرر رجال العائلة التخلص من تلك التي جلبت العار وتدنّست، سواء بالقتل أو الطلاق أو الطرد من المنزل ومن القرية أو الحي. تبرأت العديد من العائلات من نسائها أو حكمت عليهن بالحبس المؤبد داخل جدران البيت بعيداً عن أنظار الآخرين واتهاماتهم وشماتتهم لمواجهة النبذ والإحساس بالعار والذنب، اختارت العديد من النساء الانتحار هرباً من اللوم في عيون الأهل والمعارف، والحسرة والشفقة، بالإضافة إلى الإحساس بالذنب وقلة الحيلة وتجاهل الجميع معاناتهن وإرغامهن على الصمت والاختفاء.

أما العالية فقد أخذها موح كلش إلى منطقة بعيدة عن حيهم لتكتب ولدها باسم أخيها أمام الناس وفي نظر القانون ويحفظ بذلك سمعتها و«شرف» العائلة، وكي يحظى الطفل بحياة شبه طبيعية بعد أن يحصل على أوراق ثبوتية رسمية.

آلاف الحكايات والمصائر ظلت مجهولة، آلاف الأسماء لن نعرف عنها شيئا. مجرد خسائر جانبية أقل أهمية من القتلى، مجرد نساء بلا شرف في

نظر المجتمع، لم يقاومن ولم يمتن في سبيل حمايته، الغريب أن نفس الرجال الذين لم يستطيعوا حماية نسائهم، كما هو منوط بهم حسب الثقافة السائدة، هم أول من عاقب الضحايا بعد عودتهن، العديد من النساء اضطررن للاختفاء تماماً من الحياة العامة والاجتماعية كي يتمكن باقي أفراد العائلة من العيش بسلام بعد «الفضيحة» التي طالت شرفهم وسمعتهم.

يتردد موسى الشامبيط وفريقه على حي الطابية كثيرا بعد أن عرف بمكان تواجد موح كلش، الذي في نظره مجرد عاهة لمجتمع يفقد كل مقومات الهوية، حي الطابية هو مجرد حي لغرباء استوطنوا مكانا خاليا وجعلوا من أنفسهم سكان مدينة سوق إبراهيم، يبقى الغريب غريبا في نظر ولاد البلاد ولو استوطنوا المكان وعانى معاناة الناس وتقاسم الآلام والأحلام، يبحث موسى الشامبيط عن فلول جماعة أبو ليلى وبالأخص حمو البياع لعله يفشي فيه انتقامه من خيانته لمدينتهم، لكن موح كلش فهم هذا التردد على حييه كأنه تهديد مباشر له وشيء في نفس موسى الشامبيط الذي في كل مرة يبحث عن أحوال العالية ومصيرها، وقع موسى الشامبيط في حب العالية رغم فضيحتها، بعد تلك النظرات لم يستطع موسى إغلاق عينيه معجبا بما كان يسميه جمال العروبيات لكن أخ العالية كان رافضا لهذا الحب غير المعلن واعتبرها مساومة له على أن يرضخ لتهديد موسى في فضح سر أخته العالية إن لم يتزوجها، تقدم موسى الشامبيط مرارا وتكرارا لخطبة العالية لكن دائما ما كانت عائلتها تصده وترفضه، رفض العالية لم يكن بمحض إرادتها بل كان تحت تهديد جماعة الضمير الأعور لموح كلش مما جعل مصير العائلة في خطر إن تصاهر مع موسى الشامبيط، هنا زاد الخصام وراح الانتقام من عائلة العالية يطول موح كلش دون أن يعرف التفاصيل والأسباب لرفضهم.

لعنة المكان

بين طيات التاريخ يخلد ذاك الزمن الغابر أين كان الجن هو الآمر الناهي تدور خرافة سائرة عن أن زنقة الحايرين هي مكان ملعون، إن مدينة"سوق إبراهيم كانت عبارة عن مكان يحج فيه الناس وتحط فيه القوافل والموالون (رعاة الغنم والأبقار) والزائرون لها من المدن المجاورة، كانت هناك بطحاء واسعة تصطف فيها الجموع وتلتقي الخصوم وتصفى فيها القلوب، وتحيا فيها الضمائر والنفوس، وفيها تفض المعارك والحروب، وفيها تنزل البركات والخيرات، فالرجال الصالحون يحبون سوق إبراهيم وهي تحبهم وتتبرك بهم جالبة للخير والمطر، فكان الغرباء يلجؤون إليها في الأيام الحالكة، ويبيتون فيها مغبة الخوف من قطاع الطرق وبغية الراحة والأكل، كان الكل يحب سوق إبراهيم، يمدح سكانها، يثني على رجالها، والبعض يتزوج بناتها تبركا بأصلهن الشريف ومجلبة لأخلاق عائلات سوق إبراهيم.

يوم الجمعة من الزمن الغابر، توقيت الصبح...

تدخل قبيلة عربية من بني هلال سفوح جبل تمولڤة، فيسرع أهل سوق إبراهيم لاستقبالهم والترحيب بهم بعد أن عرفوا أنهم أصحاب خير كبير وجود كثير، فيبتاعون منهم ما جادت به أرضهم من خرفان وماعز، ويتبادلون السلع والخيرات، ويتعلمون منهم فنون التجارة وفصاحة اللغة العربية التي فقدتها المدينة بعد خروج الدولة العثمانية، واختلاطهم مع القبائل البربرية.

يوم آخر من صفحات التاريخ، تبيت القبائل الهلالية في بطحاء مدينة سوق إبراهيم فيعجبون بأرضها الخصبة وبمائها الوفير وصفاء جوها المساعد للعيش المريح فينصبون خيامهم ويطلقون خرفانهم للرعي، صلاح القبائل الهلالية جعلهم يلقون القبول لدى سكان المنطقة وتغلغلوا في قلب المدينة وتقاسموا الأفكار والتجارة وصار البعض منهم يمتهن الصياغة وصناعة المجوهرات والنحاس، وبعضهم يبني المساجد والمدارس القرآنية ويسمي القرى والمداشر، وبناتهم يعلمن البنات المحليات صنع الحلويات والخياطة والطرز وجز الصوف لصنع ملابس شتوية منه.

فاستوطنت القبيلة قلوب السكان وأصبحوا في زمن قصير جزءا منهم، فرحهم هو فرح الجميع، وقرحهم هو حزن الجميع، فاستثمروا أموالهم في البناء والمبادلة التجارية، هذا ما أثار غيرة بعض القبائل البربرية التي لم تهضم هذا التداخل والتعاون بين القبيلة الهلالية والسكان المحليين، والتوسع والنفوذ الذي أصبح يتمتع به بنو هلال في المنطقة شكلّ خطرا على خطط البربر في الاستيلاء على المدينة التي كانوا قاب قوسين أو أدنى من دخولها بعد أن سقطت الدولة العثمانية، واغتنام فرصة الفوضى في المنطقة.

الليلة الدامية...

في غفلة التسامح والأمن وتجانس العرب والسكان، قامت مجموعة بربرية بالهجوم على القبيلة وأحرقوا كل الخيام المنصوبة في بطحاء وادي شلف المحاذي للمدينة، وسرقوا الأغنام وروّعوا أصحاب الخيام، وفي صبيحة اليوم الموالي اندهش سكان سوق إبراهيم من بشاعة ما خلفته أيدي وحشية لم تهضم ما حدث، أثار ذلك استياء القبيلة الهلالية ما جعل حربا

كانت ستقوم بين القبيلة الهلالية وقطاع الطرق الذين عاثوا فسادا في قرى كثيرة مجاورة وهم على أبواب هذه المدينة المسالم أهلها، لكن تهدئة كبار وشيوخ المدينة للقبيلة أسكتهم لأيام، ومع تكرار تلك الهجمات على القرى المجاورة ومدينتهم، وإراقة الدماء واستباحة النساء، قررت القبيلة مغادرة سوق إبراهيم والتوجه غربا لعلهم يتركون سكانها فمنذ مجيئهم أصبحت المدينة مهددة، وأصبحت الجرائم تعلوا المشهد الروتيني الوحيد، جمع أهل القبيلة خيامهم وأموالهم وهموا بالرحيل وعندما وصلوا إلى قمة جبل تمولقة، نظر شيخ القبيلة إلى سفح الجبل أين تتموقع المدينة ورفع أيديه للسماء وقال "اللهم اجعل السوق سوقا مربوحا، ولمن أراد بها الضرر اجعله يا رب مجنونا".

ظلت المدينة تتأرجح بين زيارة القبائل وذهابهم فاكتسب السكان خبرة في التجارة والطب والأعشاب فكانت مركزا تجاريا تجلب له القوافل والتجار من كل مكان وأصبح سوقها معروفا، لدى العام والخاص.

يحكى في قديم الزمان أن رجلا صالحا كان يحكم مدينة سوق إبراهيم بالجن، يتحكم بالجن ويمشون تحت إمرته، يسترقون السمع ويأتون بالأخبار، ويجلبون المال ويحفرون الوديان لكشف الذهب والفضة، فكان الجن يستميل الشيخ بالمال والسلطة، لكن الوليّ الصالح رجل تقي عارف بالله، محب لعشيرته ويرى صلاحه من صلاحهم، ومصيبتهم من مصيبته، امتلك العالم الكثير في عالم الأعشاب والطب البديل، كان طبيبا روحانيا، كان يطمح لامتلاك الطاقة الروحانية التي تمكنه من تطبيب سكان مدينته، وإعانتهم على التداوي بالطاقة، فعمل على بناء بيوت على شكل مطاحن من أجل تخزين الطاقة والقضاء على الجن والأمراض النفسية التي ألمت بالسكان، هذا العمل أثار دهشة السكان الذين أصبحوا يتساقطون واحدا تلو الآخر، وكأنه كتب على سكان المنطقة أن يصبحوا مجانين أو مطورنين، سقوط المدينة في قبضة الجن الشرير تارة وفي قبضة الجن الصالح تارة أخرى، خلق حروبا تلو الحروب لا تهدأ ولا تستكين ، تغلغل الشيخ في عالم الجن وتفسيراته فجعلته يكتشف أن مدينة سوق إبراهيم تحتوى على كنوز

باطنية كبيرة جدا أدت إلى اختلال في الطاقة وزيادة الطاقة السلبية سببها أن الأرض تحتوى على كمية كبيرة من الذهب والفضة، ما جعل معشر الجن يتصارعون على من يملك مفاتيح الأرض وخزائنها، كان السكان يموتون بالجوع ونقص في الأموال والأولاد والخوف وبسببهم كثرت الأمراض النفسية وكثر المجانين وأضحت مدينة ملعونة يهرب منها الجميع بعد أن كانت موطنا للراحة النفسية وموئلا للأمن والأمان، هذا الأمر جعل وجهاء المدينة يلتمسون الخير من الرجال الصالحين الذين اجتمعوا لمعرفة الأسباب، خرج الشيخ بحل بأنه سيعمل على استخراج الطاقة السلبية من باطن الأرض وما على السكان إلا مساعدته في استخراج الطاقة عن طريق حفر الأرض واستخراج الذهب والفضة منها، والذهاب بها إلى تلك المستودعات التي بناها على شكل طاحونة بمخروط، شكّل هندسي حيّر الجميع، وخلق شيئا من الريبة في ناجعة ما يفعله هذا الشيخ، هل ستنجح هذه الطاحونة العجيبة في احتواء الأمراض التي عجز عنها الدواء، لكن ما كان عليهم سوى تتبع ما تفضي بهم هذه المعجزة، بدأ السكان في حفر الأرض واستخراج الكنوز الباطنية وجمعها داخل تلك الأشكال التي لم تعهدها متخيلات السكان، إلا أن بدأت الأحوال تتحسن، وشفي الجميع من تلك الحالة النفسية، تمر السنوات الملاح ووصلت ساعة موت الشيخ الراجل الزاهد الواعظ، فاختلف الجمع على من يدفنه، واختلف معشر الجن على من يرث الشيخ فتصارع الجن من جديد وقرعت طبول الحرب، وعادت المدينة تحت نكبة الخوف والاضطراب، فالجن الشرير يريد الانتقام والجن الصالح يريد دفنه في مقبرة الصالحين، فحفر كل من الجن قبرا له أحدهم في مقبرة الصالحين والآخر في مقبرة الجن الشرير، فأصبح الشيخ ذو قبرين ووصلت جحافل السكان إلى تلك المخازن التي تحتوي على خزائن الأرض من ذهب وفضة وكنوز ليقتسموا، فبعد أن شفي الجميع نسوا أن نجاتهم كانت بسبب اختزان الشيخ لهذه الكنوز، وتصفيدها بجعل جن شديد غليظ حارسا عليها لا يفتحها إلا بإذن الشيخ، وبعد موت الشيخ تمرد الجن وقاموا بفتح الخزنة ونهبوها فعادت الطاقة السلبية للخروج ومعها غضب الرجال الصالحين

الذي ما فتئوا يذكرون الناس بما قد ينجر عن هذا الفعل، إلا أن العز بالإثم أعمى قلوبهم، لتحل سحابة كبيرة فتلبدت السماء واختلت موازين الجاذبية لترتفع الأرض وتنقلب على المدينة لتصبح مدينة منسية. مدينة على أنقاض الفساد واللعنة.

تدور الأزمنة الغابرة وترحل معها أيام الهلاك والدمار ويستكين الجن لمالك آخر فيستقوي هذا الأخير بما يملكه من قوة بفضل الذهب والفضة ويستقوي الجن بقوة الشيخ وحنكته في إدارة الحياة والاهتمام بحل مشاكل الرعية والأزمات الاجتماعية والاقتصادية والمشاكل الأسرية والقبلية فلحم الناس من حوله طلبا للكرامات وكان هذا الشيخ يجمع من حوله الدراويش ليعلمهم ويرسلهم في ما بعد إلى القرى والمداشر لتعليم العامة أصول الدين والفقه فكان الناس يلتفون من حوله سمعا وطاعة بعد اطلاعهم على كرامته وعصمته وبعد موت الولي الصالح تكثر الأضرحة لتصبح من بعدها مزارات منتشرة كالنار في الهشيم وغير بعيد عن مدينة سوق إبراهيم تنتشر دور الصفيح وأكواخ الخشب المختلفة الأشكال والأحجام، إنها بيوت الدراويش الذين عايشوا الشيخ وتتلمذوا من حوله يمتهنون الرقية والأعشاب الطبية ليجود عليهم الناس طالبين بركاتهم بالخضر والفواكه دعما لهم لأنهم يحفظون القرآن.

تلك المشاهد على مرأى البصيرة وتلك الصور المتداخلة والمتعددة لا يمكنك أن تظفر بها في مختلف أرجاء هذه المدينة الصغيرة، مدينة الأولياء والصالحين المحاذية لواد شلف إلا إذا جلست عند مقهى جوني الذي كان موفقا في اختيار هذا الموقع على ناصية زنقة الحايرين حيث نصب بعض الأخشاب البالية ليقيم بها شبه مقهى يؤمها بعض المارة ولكنهم قليلون جدا بالقياس إلى الأكوام البشرية التي تقطع الطريق الطويلة كل يوم منذ الفجر إلى آخر النهار.

حيص بيص... وين بت البارح في جنان بوصالح... كليت التفاح والنفاح...

مار بأزقة المدينة، لقد تعودت زيارة هذا المكان، كان مرتع صباي وطفولتي ويصعب على المرء أن يطرد من ذاكرته بقايا رجل كان في الماضي طفلا، حضر الحاج قدور، لتحضر معه تعاسة المكان ورتابة مقهى جوني والكلام الكثير الذي كان ينطق به الدرويش المعاد والمكرر على سمعي كل يوم، زاده رؤية تلك العوانس القعيدات وهن يسرعن الخطى كل يوم جمعة مهرولات لملاحقة عربة من العربات التي تجري حاملة الذبائح والقرابين من الخرفان والدواجن والمؤن إلى ذاك الضريح، لعل الله يسهل عليهن أمر الزواج، كانت الأفراح تكتسي صبغة الحزن والكآبة احتراما لقدسية الضريح والمكان، لذا قلّت الابتسامات فيما بينهم وملأ الحزن والترقب وجوه الجميع، كانت الزيجات والجنازات كلها تقام أمام الضريح وفي زاوية الشيخ.

كان الحاج قدور رجلا بدينا ضخم الجسم يرتدي سروالا عربيا أصيلا يزيد من بدانته، وعلى رأسه شاش وعمامة بيضاء، وأول ما تصيبه العين من هذا الرجل شاربه المعقوف الكثيب الأشيب وحاجباه الكثيفان يكادان يغطيان العين، وكفان كانا ككفي عملاق هائل، ولم تكن أصابعه بأية حال من الأحوال كتلك الأصابع القوية الصلبة التي يكسر بها أغصان الشجر ليحتطبها ويجلبها فوق ظهره كل جمعة ليبيعها في سوق البطحة، يقطع تلك الصورة البدينة سعاله الجارح الذي يهز حنجرته المنتفخة وكأنه يحمل مرضا فتاكا بين ضلوعه، كان الحاج قدور درويشا لدى الشيوخ الذين عاصرهم لكنه بعد امتهانه الدجل والشعوذة طرده شيخ الزاوية آنذاك ليسكن الجبال ويقتات من البساتين المحيطة بالمدينة، **يا حمام ويا لمام وين بت البارح في جنان بوصالح، شاكليت البارح الحارة والمحرورة هد الذيب للغابة جاب الراص والكرعين هذا يشم وهذا يلم وهذا يقطع الدم...**

كلام يردده دون هوادة على أسماع الناس يريد بها إخبار قومه وأهله أنه يعيش في البساتين والغابات لعلهم يجودون عليه بالزيارة والإيواء كيما يقولوا ناس زمان **إلا ما تعشيت تبات لدفا.**

برودة الطقس خارجا أصابته بنزلة برد قوية أرجعته مجنونا يتكلم حكما وشعرا وينطق كلمات غير مفهومة ويصيح في وجه الغرباء، كادت بعض الكلمات الجارحة أن تطرحه قتيلا حين كان يقول مقولته المشهورة "يا ويحكم يا ناس لوكان يدخلوكم الزفافة" "يحسراه نهار يطغى الدبور لكحل" وكلمات أخرى وهو يخبر سكان سوق إبراهيم ويحذرهم من الغرباء الذين يسكنون المداشر والقرى البعيدة الذين لا يعرفون أصول المدينة وعاداتهم فيخاف أن يأتي هؤلاء بعادات لا تتماشى مع نمط أهل المدينة الصالحة ومدينة الأولياء والصالحين فيفسدونها ويتبعهم أهل الصفوة، كلمات وخلجات درويش استهزأ بها الجمع والناس وظنوه مجنونا في أيامه الأخيرة.

في طريق العودة إلى البيت تشاهد تلك الجموع من النساء الغفيرة العائدات من الضريح الصالح إلى بيوتهن وعلامات الخير والانشراح تملأ وجوههن بعد أن قمن بجميع الطقوس اللازمة وكلهن شوق وترقب لقدوم فارس الأحلام.

شتاء يغطي الروض والسماء تبكي نحيب الصالحين والدراويش ورحيل الحاج قدور والبقية ليعود للأذهان كلامهم وحديثهم وحكمهم التي خلدتها الأفواه والحناجر ولأن كلام المجانين يصدق كثيرا وينطبق على الواقع فبعد مرور أعوام على موت الحاج قدور أو المجنون قدور يجهز القدر المدينة إلى نكسة أخرى لتضاف إلى سابقيها وأصبح سكان القرى والمداشر يزحفون إلى مدينة سوق إبراهيم بالآلاف يرهقهم الخوف والرعب.

الآن يتساوى القوي والجبان

كان صامويل كولت محقا في قوله عندما اخترع المسدس، الآن يتساوى القوي والجبان.

فما أشبه الأمس باليوم، كأنه كتب على سوق إبراهيم أن تظل تحت رحمة النار والخوف، فبعد أن ارتاح السكان من مظلة الاستعمار، تستمر صفحات التاريخ بتدوين جرائم هؤلاء القتلة والمخربين لكل ما هو جميل وكل ما يخلد لحقبة ما بعد الاستقلال، جحافل التساؤلات تطبع على ساكنة المدينة لماذا

انطفأت؟ إلى أين نمضي؟ إلى أي حال سنصير؟ كلها أسئلة تتداولها الألسنة دون نطقها، كان "برقع" شابا في بداية العشرينيات غاصا في دوامة الفكر التي اجتذبته إليها رتابة العمل وروتينه، أفكار تأتي وأفكار ترحل، مد يطغى على رأسه فيغرقه وجزر تنحسر فيها كل الأسئلة السابقة تاركة سؤالا واحد هل سنعود يوما إلى حيّنا، إلى قريتنا التي كانت فيها جل ذكرياتنا، طفولتنا، الهرولة بين تلك السفوح الخضراء، وأخذ قيلولة تحت شجرة الدفلة بدون خوف حتى يأتي الليل، هل يأتي يوم نقبل فيه تربة وطننا، كلمات على محيّا الأفواه نطق بها بعد أن غادر برقع وأربعة من أصدقائه الشاعر موح فركاتة وعبد القادر الكونتور في قوارب الموت نحو الضفة الأخرى من المتوسط تاركين وراءهم والدة متحسرة ووطنا حزينا، قلب يراقب الأوضاع في وطن ضاعت بوصلته ورائحة الدم تنتعش من أرضه، ما زال ليلة أمس لم يستطع منع دمعته من السقوط، دماء الشباب تعربد في عروقه وكأن السنوات لم تمر، كانت ليلة!! وكم تتشابه الليالي هناك في موطني، كانت هذه كلمات "برقع" وهو يتحسر على تلك الحشود التي حضرت تشييع جنازة عشرة أساتذة لقوا حتفهم في حاجز مزيف على مقربة من عتبات المدينة بعد أن عادوا من حفل توزيع الجوائز في نهاية الفصل الأول الدراسي، شباب في مقتبل العمر يلقون حتفهم بسبب بدلتهم البيضاء التي جعلت منهم أعداء الجهلة وزارعي الفوضى والخوف، ومشجعين كانا عائدين إلى المدينة مع حافلة فريقهم، وجد "شاماطا" وعليلو كابيلوا مشنوقين على شجرة الصنوبر، وبقية اللاعبين مرميين على طول الطريق، أما سائق الحافلة فاقتادوه إلى حافة الوادي وأمروه بنزع ملابسه ورمي نفسه داخل المجرى، في أقصى مشاهد الخوف والظلم، كان الشاب "برقع" يدون تلك الحوادث في جريدة محلية لم تكتب منذ أشهر عنوانا يريح الأنفس، كانت جل كتاباتها حول الأوضاع الصعبة التي يعيشها سكان القرى والمداشر، تهديد الجماعات الإرهابية له جعله ينفذ بجلده إلى ما وراء البحار تاركا الأحزان وراءه، حزن أمه وحزنه على بلدته الواقعة تحت رحمة الخارجين عن القانون، فبعد أن قام هو ومجموعة من الشباب بفتح تلك الكنيسة وتحويلها إلى مكتبة

وتعليم الأطفال وحمايتهم من التسرب المدرسي، ثار غيض وغضب المارقين، وقاموا بحرق تلك الكنيسة بما فيها الكتب والطاولات.

جاء يوم الجمعة، الكل يستعد لاستقبال وفود آتية للسوق الأسبوعي، هناك حاجز أمني وطابور من السيارات لتدخل إلى السوق، وفي لحظة غفلة من الجميع سمع طلق للرصاص، وسمعت صفارات سيارات كثيرة، البعض منهم ترك سيارته ورحل وسيارات أخرى تداخلت في بعضها البعض، عاد موسى الشامبيط من رحلته قادما من المقبرة التي دفن فيها والديه، عندما رأى موسى الشامبيط رجال الأمن في الطريق استبشر خيرا وراح من نافذة السيارة يحيي الرجال.

فجأة تم توقيف السيارة واقتادوها إلى مسار غير معلوم هنا أحس موسى الشامبيط أن هناك أمرا ما.

في آخر اليوم سمعنا أنه كان حاجزا أمنيا مزيفا راح ضحيته موسى الشامبيط ليصدم سكان مدينة سوق إبراهيم بفيديو منتشر.

في بداية الشريط، يظهر كيف أن عناصر جماعة "العمري قوطيش" الذين كانوا يرتدون ألبسة وبدلات خاصة بأفراد الجيش والحرس البلدي، انتشروا فور نصب الحاجز المزيف في وسط طريق عام يؤدي إلى المدينة، وشرعوا في توقيف سيارات المواطنين وتفتيش المارة، دون السماح لهم بمغادرة المكان، قبل أن يتحول الموقع إلى طابور من السيارات المتراصة. وقد بدا من خلال مشاهد ولقطات الشريط أن الإرهابيين نصبوا الحاجز تزامنا مع طلوع النهار، حيث كانت أضواء سيارات المواطنين التي تم توقيفها في البداية مُنارة.

وفي مشهد آخر، تبين أنه جرى تصويره بعد حوالي ساعة من بداية العملية الإرهابية، من خلال الكم الكبير من السيارات المحتجزة على مستوى الحاجز ومن خلال اتضاح الرؤية، يظهر كيف تم اكتشاف وجود موسى الشامبيط حيث كان في زي مدني بين المواطنين الموقوفين بالحاجز المزيف، إثر قيام هذا الأخير بالكشف عن هويته وطبيعة عمله، بعدما توجه نحو الإرهابيين وطلب منهم السماح له بالمرور بعدما ظن أنهم "زملاء".

بعد ذلك، يظهر الشريط كيف أن ثلاثة من الإرهابيين راحوا يحاصرون الشرطي، كان أحدهم يرتدي لباس الحرس البلدي، فيما كان الآخران يرتديان لباس الجيش، وقد كانوا كلهم يصوبون أسلحتهم الرشاشة تجاهه. وبيّنت لقطات من الفيديو موسى وهو يخاطب محتجزيه، الذين كان يعتقد أنهم من عناصر الأمن والجيش بقوله لهم: "يا جماعة والله العظيم غير أنا حرس بلدي..."، قبل أن يضيف في مقطع آخر "وعلاش هاذ السلاح؟" مبديا دهشته من معاملتهم له بتلك الطريقة ظانا أنهم زملاؤه. وقد بدا واضحا من خلال لهجة وطريقة كلام الضحية أنه راح ضحية التمويه والتضليل الذي مارسه الإرهابيون بارتدائهم زي مصالح الأمن.

بعد ذلك، أجبر الإرهابيون موسى على الركوع ثم التمدد على بطنه، تحت وقع الركلات، فيما كان أحد الإرهابيين يضع فوهة ماسورة رشاش الكلاشنيكوف على ظهره. في تلك الأثناء مر إرهابي آخر بجانب موسى الذي كان ممددا على الأرض، على بطنه، ليشاهد هذا الأخير أن من مرّ بجانبه كان يلبس حذاءً بلاستيكيا (بوت)، وسروالا عسكريا قصيرا على مستوى "نصف الساق"، ليدرك على الفور أن من أوقفوه إرهابيون وليسوا من مصالح الأمن أو الجيش.

بعد ذلك، شرع موسى الشامبيط في محاولة إلهاء الإرهابيين، من خلال قيامه بالوقوف رغم تحذيراتهم وأوامرهم له بالركوع والتمدد على الأرض مجددا، فقام باستدراجهم في حديث ممزوج بالاستجداء قبل أن يحاول الفرار تجاه إحدى الشعاب المجاورة، غير أن أحد الإرهابيين الثلاثة الذين كانوا يحاصرونه أطلق عليه النار برشاش كلاشنيكوف على الفور، ليصيبه إصابات عديدة في رجله وأظهر الشريط، وهو الأول من نوعه الذي يظهر عمليات خاصة بنصب حواجز مزيفة من خلال ارتداء ألبسة أفراد الجيش وعناصر الأمن، كيف أن الضحية كان جثة هامدة مطروحة أرضا بين الأحراش، ورغم ذلك راح الإرهابيون يطلقون النار مجددا على جثته على دفعتين، ويصيبون الجثة بعيارات عديدة على مستوى العنق والرأس.

يعتبر الشريط الذي بثه التنظيم الإرهابي والذي يرد بصفة مباشرة عن السؤال الذي طرح منذ بداية العشرية الحمراء ”من يقتل من”، الأول من نوعه الذي فضح تنكر الإرهابيين في زي أعوان الأمن والجيش بغرض الترصد للعُزّل واغتيالهم بأبشع الطرق، حيث وبعد أن كانت منشوراتها تقتصر على الكمائن والاغتيالات بالزي الأفغاني ووجوه مكشوفة، نشر التنظيم لأول مرة صورا لإرهابيين متنكرين في زي عسكري.

وهي الطريقة التي اعتمدها منذ البداية في التضليل والتمويه بأن عناصر الأمن هي من تغتال المواطنين.

تقرير مفصل ، لوحشية عمل جبان، راح ضحيتها ابن خوف، ابن فزع، رجل شرطة، رجل دين، ورجل سياسة أين اقتاد مجموعة مسلحة تطلق على اسمها جماعة "الروخو" رئيس بلدة سوق إبراهيم إلى أحد الوديان المجاورة وقطعوا رأسه وعلّق في مدخل البلدة، ورسالة علقت بلسانه مفادها أن السياسة حرام، نعم في فكر جماعة التخويف والترهيب السياسة وشرب الخمر سواء، فكم من رجل فذ وصالح أراد خدمة بلدته أراقته أيدي الغدر، فرغم كون رئيس البلدة مسؤولا عن تخلف القرية وعدم وجود الأمن في المنطقة إلا أن العمل الشنيع الذي أدى إلى لقاء حتفه الأخير أخذ تضامن الكثيرين معه وحزنوا لموته فكم من شاب حرم من الدراسة في الجامعة لأنها فيها الاختلاط مع النساء وكم من بنات حرم عليهن العمل لأن العمل لا يجوز للنساء، كم تتشابه الأيام وكم يشبه الحاضر ذاك الماضي الأليم،كان الفرنسيس يحرمون أبناء سوق إبراهيم القراءة فورثنا جهلا وقمعا لحقوقنا وجهلة أكملوا العهد بالجهل وأحرقوا الزرع وزرعوا مكانه الخوف والرعب، يستغرب الجميع ماذا فعلنا حتى يكتب لمدينة سوق إبراهيم الشقاء تلو الشقاء وعشرية لم تبق على شيء، حين نفض السكان حزنهم، باغتهم المجانين من كل حدب وصوب.

تمر أيام عديدة على الحادثة لم يسمعوا أي خبر عن موسى الشامبيط أو عن جثته التي لم تظهر بعد.

اغضبوا... ازربوا...

صوت مختنق قادم من تحت شعبة لمياه المجاري...
اغصبوا موسى الشامبيط راه مطايش هنا راهوا يتنفس مزال حي.
يهرع نفر ممن كانوا يجلسون على حافة الشعبة إلى الأسفل فيحملون على أكتافهم جسد موسى الشامبيط المنهك والمملوء بالدم.

مدينة المجانين

ربيع عام 1999

بعد أن جفت الدماء، وحقنت الأنفس حقن السلام، واستكان الهدوء وتصالح الأعداء والقادة، وعاد ذاك الصباح المقرون بقهوة ترتشف من أفواه لا يرتابها المخيفة والذعر، وأضحت الصباحيات مكتظة ببهيجات الصبا وضحكات الأطفال، صار السلام عنوانا عريضا لأيام مدينة سوق إبراهيم، صرنا نرى ابتسامة العابرين على زنقة الحايرين، بعد أن كنا نراهم

مصاصي دماء، لا نميز بين العاقل والمجنون، إلى قمامة التاريخ لكل ماض أهلكنا، تلك المشاهد الحزينة التي ما زالت تطبع في الجرائد وتخبئها تفاصيل كل زاوية هنا في زنقة الحايرين، صور التفاؤل على محيا الكادحين والعاملين على ناصية الطريق، الذين يفترشون الأرصفة ليبيعوا أي شيء، إلى العابدين والعائدين إلى المساجد، إلى مؤذن جامع الفرقان، إلى بائع الأزهار على شارع الأمير، إلى دمعي، دمي، أهلي، وبين هذا وذاك تحكى قصص من رحلوا عن المكان وبقيت قصصهم راسخة على أفواه كافتيريا الحرية، صور بالأبيض والأسود، رجال الباتريوت، أفراد الجيش والشرطة، أما المجانين فكل يوم تستقبل المدينة عشرة مجانين جدد ترمي بهم سيارات ليلا في الشارع الرئيسي للمدينة فيتوغلون إلى أزقتها وصولا إلى زنقة الحايرين، فيفترشون الرصيف ليلا لينهضوا على صوت "موح الحراشي" بائع السردين، آيا السردين، آيا السااااردين، كوول يا ڨليل (أصحاب الدخل الضعيف)، أيا الساردين عشرة دينار، ليباغته صوت الحاجة سليمة، لماذا 10 دينار غالي بزاف يا وليدي)، ليرد موح الحراشي بابتسامة إننا ندفع الضرائب والحكومة ترفعها إذا نحن نرفع السعر لكي نتساوى لتبتسم خالتي سليمة، أرسل لي نصف كيلو، لقد أنزلت لك السلة ومعها المال، ما يكون لا خاطرك خالتي سليمة وهذي حبيبات من عندي لترفع خالتي سليمة السلة بحبل ممتد من شرفة غرفتها محملة بحبات السردين، عمي موح أحد رجال المدينة الذين لم يهربوا إلى مدن الشمال الكبرى رغم قدرته على ذلك، حمل السلاح في وجه أعداء الوطن وصعد الجبال لنصرة الحق وآخذا بثأر ابنته البكر التي قتلت وهي هامة بالخروج من ثانوية "أبي بكر الصديق" جرحه النفسي وزاده جرح في عينه التي فقدها في طلق ناري أصاب عينه فلّقبه السكان هنا بالحراشي نسبة لوجه التشابه مع صيادي السمك، واضعا فوق رأسه تلك القبعة البيضاء والزرقاء التي تشبه كثيرا ما يضعه قادة البواخر العملاقة، كان رجلا محبا للخير، بشوش الوجه، شاربا دم عزته بأنه ابن زنقة الحايرين، ينشد الأشعار وهائم بالتجول داخل الأزقة الضيقة بعربته المليئة بأنواع السمك، ليصادف عمي موسى لعمى درويش الحارة، هذا

الأخير كان سباكا ولأنه كظيم راح يسخر منه موح الحراشي الذي يملك عينا واحدة سليمة، فيرد عليه عمي موسى لعمى بحكمة الكبار، تحت هتاف المجاورين لمحله، مشهد افتقده السكان بعد عشرية دموية، أفقدت بائع السمك ابنته وعينه، وأجبرت عمي موسى على تعلم توقيت الصلوات الخمسة ولحاق وقت أذان الفجر بحاسته السادسة، بعد أن أغلقت المساجد وأجبر المؤذن على عدم رفع صوت المكبر أما الساعة التي كانت في واجهة الكنيسة فقد فقدت معالمها بعد آخر عملية تخريب مستها، والتي أخذ الشاب "برقع" المحب للثقافة على عاتقه ترميم تلك الكنيسة وجعلها مركزا ثقافيا وربما مكتبة من جديد، فبعد أن عاد من غربته، حاول جاهدا إعادة فتح الكنيسة وترميمها لكنه صدم برفض "بوبالطو" رئيس البلدة الذي رمى طلبه في سلة المهملات، عندما ترتاح مدينة من أزمة خوف لمدة عشرين عاما لتبتلى بمسؤول يعيدها إليها بأفكاره الشعبوية، ستعود حتما مدينة سوق إبراهيم خرابا كما جرت العادة، هذه المدينة الملعونة لن تستريح من المجانين الذين عاثوا في أزقتها خرابا وجمودا ليقابلك في مخرج مبنى البلدية، جموع غفيرة تطالب بالسكن، بالعمل، بإصلاح الطرق والأرصفة، يقودهم الخاسر في الانتخابات السابقة، سمير "الدوزا" هذا الأخير خسر كل أمواله من أجل أن يصل إلى كرسي الرئاسة، فاشترى الناس والمحلات وحتى اللجان لكنه خسر الانتخابات لأن من كان يسانده لا يملكون حتى بطاقة الانتخاب، في سخرية القدر حمل برقع طلبه وهمّ بالمغادرة لكنه توغل في الحشود وعاد يطالب هو الآخر بالسكن وترميم الكنيسة، فتقدم إلى سمير الدوزا وأعطاه الطلب، عندما قرأه أحس بفخر المسؤولية، وغيّر الحشد إلى زنقة الحايرين أين توجد الكنيسة المهجورة، وطلب من المحتجين تنظيف الكنيسة، أعجب برقع كثيرا بما فعله هذا المختل الذي ما فتئ يزور فرانس فانون (مستشفى المجانين) ليهرب ليلا عائدا إلى جنونه المعتاد.

قال سمير:

- ما رأيك في التنظيف؟

رد برقع:

- أشكر الجميع على المساعدة ستكون هذه الكنيسة بإذن الله مكتبة ومكانا للتعلم.

وتحت التصفيق العالي اقترب سمير الدوزا من برقع وبصوت خافت قال له (واش رأيك نكروها صال ديفات تخرج روعة) ما رأيك أن نجعلها قاعة حفلات لكرائها في زمن الزاوج، نظر لسمير بعينين بازغتين ليتراجع ويلقي عليه السلام ويأخذ زبانيته ويعود أدراجه إلى مبنى البلدية، في تلك الليلة عاد سمير حاملا معه قارورة الخمر التي لا تفارقه، وصندوقا طلب من برقع فتحه، وما إن هم بفتحه استوقفه للحظة وسأله سؤالا ينم عن مدى فاجعة أن يخسر شخص مولع بالسياسة الانتخابات فقد يبقى الأثر مؤجلا إلى أن يصل موعد آخر لتعود آلة الترشيح، سأله سمير إذا أعطاه بعض الكتب وأعاد فتح المكتبة هل سيصوّت عليه في المرة القادمة، أجابه برقع بنعم فمن ساعده على إقامة الثقافة في بلدتنا يستحق منه صوته، رمى سمير قارورة الخمر وعانقه بيديه وخر نائما، وضعه في إحدى زاويا الكنيسة أو حلم المكتبة المؤجل، وراح يفتح الصندوق ليجده مليئا بالكتب لكنها كتب تهتم بالطبخ، كيف تصبحين سيدة مطبخك؟ عرف مباشرة أنها كتب اشتراها لزوجته التي رحلت وتركته في دوامة غرقه بعد أن خسر كل أمواله، وخسر عقله معها.

"نونو بينيطو" الرسام الذي كان سيصل إلى العالمية لولا أنه لم يستطع الوصول إلى المطار بسبب زحمة السير القاتلة التي كان سببها حاجز مزيف، أدت طلقاته العشوائية إلى إصابة نونو في كتفه الأيسر لينقل على وجه السرعة إلى مستشفى سانسبريان، لتجرى له عملية، استيقظ على صدمة يده المبتورة، ها هو اليوم يبيع كاسيطات الأغاني في طاولته المقابلة للكنيسة والمحاذية لمحل آخر يبيع نفس الشيء، فتأتي الشرطة ببلاغ صاحب المحل ليبعدوا طاولة نونو إلى الضفة الأخرى.

- صباح الخير نونو.

- صباح النور برقع، هل افتتحت المكتبة؟ أم ما زلت تنتظر ذاك الجبري رئيس البلدية.

- إني أحاول يا نونو لم يبق إلا التهيئة الداخلية إلى أن يلتفت رئيس البلدية إلى خارجها.
نونو بينيطو بنظرة استهزاء:
- اسمعني جيدا يا برقع فاقد الشيء لا يعطيه، أصحاب البدلات السوداء والبطون المنتفخة لا يمكنهم أن ينظروا إلى ذاك الجانب فهم يرونه مضيعة للوقت وإهدارا لمال يمكن أن يدخلوه في جيوبهم، انظر لحالي أنا متزوج بدون عمل وبلا سكن، وزد على ذلك يطردونني من زنقة الحايرين أين المارة ورموني هنا بمحاذاة الكنيسة ورصيفها المتهالك والمملوء بالأتربة، من يمر من هنا لا أحد. إننا نحن الكادحون في الحياة نبحث عن قوت يومنا أما شراء السيارات والمنازل فيبقى حلما بالنسبة لنا.
نونو بينيطو شاب في الثلاثين من عمره متزوج، طالب في العديد من المرات بسكن يقيه من البرد والحر، لكنه في كل مرة يقصى من قائمة السكن، ذنبه أنه كان مناصرا للمرشح سمير الدوزا، شبح البطالة وزادته معاناة ابنته التي في كل مرة يأخذها إلى المستشفى، فقد ولدت مائلة غير متزنة، قصة نونو بينيطو وآخرون ساروا على نهجه هي قصص مؤلمة في مجتمع يقابلك بالرفض وطاعة من يملكون المال.
العاشرة صباحا وثلاثون دقيقة من الكآبة وخمسون ثانية من الخيبة، جو ربيعي، انسدل بساط النهار، وكرياس تربع على السماء، وذاك الطريق المتهالك مزال ينتظر الصيف لإتمامه، وكنيسة مهجورة تتمنى أن ترمم أين يجلس "موسى الغامل" على عتبة تلك الكنيسة، يداعب بهوان أنفه بأطراف أصابعه الهزيلة، ويسرع لالتقاط بقايا سيجارة من على ذاك الرصيف المتهالك، رامقا سكان حارته بابتسامة ساخرة، هي ابتسامة سخط واشمئزاز من ليلة ماضية أين يلجأ إلى أحد الكهوف للنوم، بين رائحته النتنة وثيابه الرثة المتهالكة، ربما يعود أو يغيب عن حارته لأسابيع ليظهر جالسا على عتبته المعهودة" موسى الغامل "شاب معدم، اسم على مسمى، عالق في فراغه المميت، يحارب الجوع، الخذلان والمرض، تخلى عن الجميع

والحارة تخلت عنه، دائم المغادرة للذهاب إلى مكان يبتلع وحشته فلطالما كانت تلك الملصقات هنا وهناك تعلن ضياعه، ليعود بعد أيام حاملا معه بؤسه، جارا معه حياته القديمة، لكنه اليوم نام على غير عادته على كتف الشارع في مدخل الحارة، قبل أن يحمله "بوسرارف" زبال زنقة الحايرين على حماره المركبة الوحيدة التي يمكنها أن تنقذ الحارة من فضلات ساكنيها، تاركا موسى الغامل في مكانه المعروف، مركب الصباح أتى من جديد، وإشراقة شمس ترخي بظلالها على جسد الزنقة، وعلى جسد موسى الغامل المنهك على الأرض، قبل أن يبصر جابر شلة من الفتيان يرمون أحجارا على موسى الغامل بعد أن تعالت أصوات أمه التي ما فتئت تفرح لعودته سالما، في هذه الأثناء لحق حسان بصديقه جابر، ماذا يحدث؟ نعم لقد عاد. لقد عاد أغلق جابر فم حسان وأمره بحمله إلى ذاك المستوصف إن صدق وصفه بذاك أين يعملان بدون طبيب وبلا معدات، حبهما في خدمة سكان حارتها قيد حلمهما في إكمال الدراسة، حملا موسى الغامل إلى الفراش أين استلقى برائحته النتنة ويغط في نومه وكأن شيئا لم يحدث، أعطاه جابر حقنة منوم، ونظر إلى صديقه حسان الذي كان غارقا وشاردا في تفكيره، قبل أن يعود إلى وضعه الطبيعي ويقول لجابر:

- عندي سؤال يا صديقي.

- ماذا هناك يا حسان!

- هل تظنه مجنونا أم عميل مخابرات فلطالما شاهدت بعض القصص عنهم كونهم يختبئون في زي متشرد لينقلوا أسرار القرية ليجيبه جابر ساخرا متهكما على مخيلة صديقه التي لا توجد سوى في الأفلام البوليسية، قائلا بأن موسى الغامل ابن زنقة الحايرين قبل أن يسقط من شرفة بيتهم العائلي ويرتج عقله ولسوء أحوال المنطقة في ذلك الوقت ومع فقر عائلته وجهلهم لم ينقل إلى المشفى، والعملاء يا صديقي يأتون من الخارج ليس من داخلها، وزد على ذلك ماذا تخفي هذه الحارة الصغيرة من أسرار حتى يأتي

عميل في هيئة متشرد لنقلها، فكل الأسرار تجدها عند خالتي "حليمة القدرة " وتاريخ المنطقة عند عمي "موسى لعمى" لا أظن يا صديقي حسان. لا أظن.

يقاطعه حسان بأن المريض يهلوس ويتفوه بكلمات غير مفهومة، أتظنه عاد لوعيه، كانت عيناه محمرتين، ووجهه بتصبب عرقا، ارتدى جابر مءزره وراح يتلمس جسده المحموم ليطلب من حسان أن يجهز حقنة أخرى، لأول مرة يعد فيها حسان حقنة راح يملؤها حد الإشباع وغرسها في جسد موسى الغامل ليفارق بعدها الحياة بعد جرعة زائدة، نظر جابر لحسان وفي عينيه شرارة غضب.

- ماذا فعلت يا حسان لقد فقدناه، فقد كان حسان وقتها مجرد ممرض متمرس لا يفقه بعد في الحقن، وفي مكان الحقن.

دقت ساعة السابعة مساءً، ينتظر جابر أم موسى الغامل ليخبرها بموت ابنها، وينظر إلى حسان وهو يرتعش خوفا من الأغلال التى تقوده إلى غياهب السجن بتهمة الخطأ الطبي، موسى الغامل هو شخص خطأ في مكان خطأ وفي الوقت الخطأ في سخرية القدر، نجا حسان بعد أن أخفى جابر خطأه عن مصالح الأمن ليصبح عبدا تحت تهديد الإفشاء قبل أن يصدم سكان الحارة بجثة الطبيب جابر مرمية بجانب نافورة المياه ليسلم حسان نفسه بعد أن رآه عمي "موسى لعمى" الذي كان هو العميل المتخفي بعماه ليصبح فيما بعد درويش الحارة الصغيرة.

حكايات الكادحين

عرس صامت، بلا موسيقى، بلا فرح، يومها كانت مرتدية فستانها التقليدي وواضعة أحمر شفاه على شفتيها المكتنزتين، وأسدلت عقدا زين رقبتها، أما دا ارزقي فكان شاردا خائفا كونه أحد رجال الشرطة، أشعل سيجارته نسيم المفضلة، وقتها كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً ساعة قبل حظر التجول يدخل "لونيس" عريسا على زوجته بعد أن انتهت النسوة من الزغاريد، كجل حفلات الزفاف نحضر له طويلا ثم يمضي بسرعة، جلس الدا ارزقي مترقبا حاملا معه مسدسه عسى أن تنتهي هذه الليلة على خير، بعد تلك الرسالة التي وجدها على عتبة بيته مفادها بأنه لن ينعم بهذا الزواج، كابوس ليلي مرهق أنهته مجزرة الفجر، ثأرا من الإرهابيين الذين اغتالتهم الشرطة، ليلتها توغلت جماعة مسلحة لسطح البيت، واغتالت أحلام شابين في ليلة العمر، أما آدا ارزقي فوجدت جثته معلقة على غصن شجرة في وسط الحوش (الدار الكبيرة) لتعيش العائلة مأساة حقيقية مريرة، حينها تذكر سكان المدينة، كل الأصدقاء الذين فقدتهم المدينة، اليتامى الذين خلفتهم أيادي الغدر وراءها. أصوات القنابل، السيارات المحترقة، التي أصبحت تعويذة قبل النوم، الأستاذة خديجة والأخريات اللواتي اغتلن بعد عودتهم من حفل توزيع الهدايا في نهاية الفصل الأول، صوت أحذية العساكر بعد الواحدة ليلا، رصاصة غائرة لم تخطئ فكانت وحشا اختطف براءة صديقي عاشور ابن رئيس البلدة في عمر الزهور ذنبه أن أباه فاز في الانتخابات، وصديقي محمد الذي شابه تشوه عقلي بسبب الحظر وولادته داخل المنزل ولادة عسيرة فكانت الجدة هي الطبيبة والأب ينتظر بشوق مولود لكنه استفاق محموما مرتعشا قبل أن يكتشف بعد مدة أن ابنه متأخر عقليا، وتلك الأراضي التي كدح فيها المزارعون أصبحت محرمة على فلاحيها ووكرا لأصحاب الفكر الدامي، ويوسف الذي ما زال يكنى بابن أمه ذنبه أن جماعة اغتصبت أمه وبعد أن استفاقت وجدت أبا يوسف ذبيحا على باب منزلها، هي ذكريات موحلة، تجعلك تفكر بزمن النار والقدر يعزف سيمفونية

الخوف، وأحبة يغادرون الحياة الواحد تلو الآخر، هجرة جماعية، نزوح ريفي، خيم مفروشة، مساجد محترقة بسبب أن أئمتها يدعون لأولياء الأمور، كنائس مدمرة، طرقات مكسرة، ليل طويل، كلاب مدربة، عويل نساء وآهات محبوسة، ورجال مختطفة هي مجرد مشاهد على مرمى الذاكرة قد عشتها أنت، أهلك، مدينتك، وقد تكون أنت المطلوب ولكن تلك الرصاصة الغائرة تاهت وما زالت تعيش للآن على أمل أن تعوض بسالة دا ارزقي، ووفاء أم يوسف، وتصان المساجد، وتحقن الدماء وتفتح المسالك، ويعود الريفي مفتخرا بأرضه الجبلية، لتكتب فصولا أخرى لحكايات الغابرين والعابرين من هنا، تخيم على مدينة سوق إبراهيم أجواء الحزن وتلفظ آخر أمل في أن تصحو يوما على أمل الحياة بدون شكوى، بدون ألم، بدون فراق، وكأن لعنة الزمان والمكان لن ترحل وتترك أمر المدينة للقدر الذي ما فتئ يخبئ لنا أحداثا تلو الأحداث، أزمات، مجانين، مشاكل، جرائم، تخلد في أزقة الحايرين، جو بارد بعد ليلة ممطرة ختمت شهرا من الصيام والقيام، وأعطت العنان لتكبيرات عيد الفطر المبارك، تلك التكبيرات كسرت جمود الحظر وصقيع الجليد إيذانا باحتفالات الأطفال في المدينة، أما "جمال" يتأنق كعادته ليجلس في مقهى المداني، مقهى قديم، ضيق المساحة وتلك الصور القديمة بالأبيض والأسود كتاريخ شاهد على قدم المقهى ولأشخاص كانوا بالأمس القريب صناع ملحمة هذا المقهى الذي كان في عهد الاستعمار عبارة عن ديسكو، وشخصين يحرصان على خدمة الزبائن، كان هذا المكان يجبرك على الالتصاق بالماضي، لا شيء بسيط كتلك الكراسي الخشبية وتلك الأغراض التي أصبحت شيئا لا يتناسب وبداية الألفية الجديدة، وقتها الساعة تشير إلى الثامنة والنصف صباحا، صوت الشيخ السفاري يعم المكان. أما جمال يجالس جريدته اليومية مع فنجان قهوة شبه بارد، لا زالت تلك اللحظات على مرمى ذاكرتي التي لا تنضب من كومة الأحداث القديمة، التي تتسرب من ذاكرة الطفل الصغير الذي كان يجالس أباه في نفس طاولة "جمال" ليبتعد ناظري لتأمل ذاك العنوان العريض مكتسحا الصفحة الأولى من الجريدة الوحيدة الموجودة على شباك

أحد الأكشاك، وضع جمال يده على خده واندفع بسخريته المعهودة هاهاها بعد أسبوع تبدأ ألفية جديدة أشبه بلهفة انتصار ممزوج بوجع الألم. "جمال" شاب في الثامنة عشر علمته أمه أن يداوي نفسه بالموسيقى فكان دائما الاصطحاب للولكمان الذي أصبح في ذلك الوقت موضة الشباب، وأن ينسى مصيره كشاب غادر مقاعد الدراسة بعد أن عاثت جماعة مسلحة وخربت المدرسة الوحيدة في المدينة، فهو رغم ألمه يخفي جروحه الثقيلة بتلك المعزوفات، فهو قد فقد أباه الحارس البلدي، ولم تستطع أمه تحمل فراق أبيه فتوفيت بعده بأشهر بأزمة قلبية، فتربى الشاب في كنف الشارع بين تردد على مقهى المداني ومحلات بيع الأشرطة الموسيقية، جمال ابن الحي الذي أسكن فيه الكل هنا متعاطف معه وهو يستأنس بما جادت به أيادي الجيران. قهوة باردة، عصير ميراندا الفاخر وقارورة ماء، هي المسافة بيني وبين جمال الذي يحاول الهروب من هذه المدينة التي أصبحت تعرفه ويعرفها، اليوم هو هادئ على غير عادته، كان متأنقا تنبعث منه رائحة زكية ممزوجة بدخان القطار وقطرات الندى الصباحية فهو يغيب عن أنظار سكان المدينة ليلا ليظهر حاملا معه قسوة وروتين الحياة القروية، كانت رياح ديسمبر تعصف بجسمه الرفيع المتهالك وثيابه الرثة، رافعا عبء الدنيا وأحزانها على ظهره، كان جمال يتوارى عن الأنظار أسبوعا وقد تتعدى لأشهر حتى يظن الناس أنه لقي حتفه أو هاجر إلى مدينة أخرى، لكنه ما لبث أن يعود ويجلس على ناصية مقهى المداني وكأنه يقول لسكان مدينته، هذا العالم ظالم جدا لا سبيل لي سوى مدينتي آنا هنا باق، مشعلا سيجارته من ورق الجرائد، الشتاء قادم مع هبوب أولى نسائمه وارتجاف يديه حين يرفع كأس القهوة، مضت عشرون شهقة وأحاديث مبتورة على السنة للحاضرين هنا، الكل هنا يعزم على الغداء والآخر يمن عليه بالعيدية، وأحدهم يحلفه بأن يأتيه وقت العشاء، يا للسخافة! من إحدى شوارع مدينتي تبدأ حكاية الآمال التي لا تتحقق، وتنطفئ بنسمة رياح هذا الخريف البارد، ينتهي اليوم ولا يزال "جمال" ينتظر ذاك الشخص الذي عزمه على الغداء، تراه قد نسيه أو تناساه، ليجد نفسه جالسا حيث تركناه يسد جوعه بالتهام ما تبقى من حلوى

مرتادي المقهى، قصة جمال هي إحدى القصص التي تعيش في كنف الكفن.
لا إنه ليس أبيض كما تظن. هو جثة حية تمشي في ظلام الأمل المستنزف، سجين الذكريات، ضحية مجتمع مفلس، حبيس التفكير. مقيد بالماضي والأحزان لتجد نفسك فجأة صحتك تضيع وعمرك يفنى بشكل متسارع، على فراش الحزن وبين الماضي طريح، ولكن تلك الحسرة البادية على وجه الشاب جمال تؤكد أننا نحن من زرعنا جراحه وأننا نحن من شوهنا تفكيره وأبعدناه عن إعادة حياته عن طريق عيش تجربة الإقصاء، وتلك اللوحة نحن من لونّاها بالأسود في حين كان هو ينتظر أن تكون بألوان زاهية، جمال غادرنا نحو حتفه لما وجد مقتولا على حافة السكة الحديدية، ضاع رأسه ومن لا يعرف جمال بلوزته السوداء وحذاءه، كم من الوقت انتظر والموت يسكن جسده المتروك على حافة السكة، كم من وقت انتظر لعله يجد شخصا يعيده إلى صوابه بكلمة أو دعوة وربما لكمة، وتحيرني الأخبار كيف ستكتب عن مدينة لا نرى أخبارها سوى على جدران الأحداث، تنبئ عن أخبار مدينتي، مدينتي قد مات ابنك يتيما يشكو ودمعه يقطر، قصص لا تنتهي فقدنا فيها الفنان والكاتب والشيوخ والعجائز وأولئك الأطفال البراءة اليتامى في حادث تفخيخ مركبة دخلت إلى سوق السيارات الأسبوعي، لتعلن عن مجزرة مروعة، أدت إلى مقتل أكثر من مائتي شخص دفعة واحدة، راح فيها من كانوا هناك، يحيى، نجيب، أطفال تفحمت أجسادهم وهم يهمّون بالعودة إلى البيت بعد أن أنهوا بيع البيض المملح، خالتي حليمة القدرة جثة هامدة فوق جثث بناتها الأربع، وباديان لاعب القمار، لم يجد فرصة للتوبة بعدما باغتته القنابل من كل مكان، تنتهي تلك الصدمة باختطاف المغني "سفاري" فنان شعبي لطالما أفرح السكان المحليين، بأغانيه التي أطرب بها أعراس المنطقة.
يرجع للبيت الدا بلعيد، لتخرج إليه لويزة تمد يدها من أجل حمل الخبز فتقول لعقبة بتلك الكلمات التي كسرت جمود إعجابه وأعطت العنان لحب ولد ليموت "تانميرث اعقبة" تمر الأزمنة والسنون وتبقى تلك القصة حبيسة زنقة الحايرين وطول مدة تحضير الخبز من المخبزة ليطل الحبيب على

معشوقته، أضحى عقبة اليوم مهندسا، وأصبحت لويزة معلمة في إحدى القرى النائية.

ما بعد طلب يد لويزة من الدا بلعيد.

تغيرت حياة "عقبة" من شاب نشيط ومرح إلى مدمن كحول ومتعاطٍ للأقراص المنومة، وذلك بعد أن تم رفضه من قبل عائلة أمازيغية أراد الزواج بابنتهم التي تحبه ويحبها.

إن الصدمة كانت كبيرة جداً عليه عندما تم رفض تزويجه من "لويزة" 32 عاماً، لا لشيء سوى أنه عربي وحبيبته وقصة مستقبلهما على مدى أربع سنوات من أصول أمازيغية.

يقول عقبة والحزن مسيطر عليه "أنتم لا تعلمون مدى حبنا لبعضنا".

بالرغم من أخلاق المهندس الشاب التي يشهد لها أهل منطقته، واجتماع مواصفات "الزوج المثالي" فيه، إلا أن دماءه العربية كانت السبب الأول والوحيد التي جعلت والد لويزة يرفضه بشكل قاطع، فالكثير من الأمازيغ لا يتهاونون في تزويج بناتهم للعرب.

الأمازيغ الذين عانوا على مدى عقود طويلة من محاولات لطمس وتهميش ثقافتهم، زادت هذه المحاولات من تماسكهم وحدتهم في الحفاظ على هويتهم ولغتهم، ويشكل الأمازيغ الناطقون بالأمازيغية حسب إحصائيات معلنة غير

متفق عليها حوالي 10% من سكان مدينة سوق إبراهيم أغلبهم يقطن في جبال تمولقة تاشتة والعناب.

سهم الموت

لم يكن "عقبة" هو المتألم الوحيد في هذه القصة؛ فلويزة تجاوز الأمر عندها الألم إلى محاولات انتحار عديدة بسبب رفض والدها تزويجها لحبيبها.

تقول "لويزة" التي تقطن حي الطابية إنها حاولت بكل الطرق إقناع والدها ليوافق على عقبة، ولكنه كان يرفض في كل محاولة من هذا الأخير الذي لم يترك طريقة إلا وقام بها لعله يكسب رضاه.

بكت لويزة بحسرة وهي تروي كيف كان يضربها أبوها، ويحبسها داخل البيت ويقطع عنها جميع وسائل الاتصالات حتى يمنعها من رؤية حبيبها أو الاتصال به.

يزيد عقبة على ما قالته حبيبته أنه فعل المستحيل لإقناع والد لويزة، فتارة يجلب معه مشايخ دين، وتارة أخرى يأتي رفقة أعيان من قبيلته، ولكن "لم ينجح شيء لتبديل أفكار الوالد" هكذا يردد.

قرار الزواج.

لم يكن أمام والد لويزة حتى يقطع السبيل أمام عقبة إلا تزويج ابنته لقريب لها دون أخذ مشورتها في ذلك، ولكن عقبة لم ييأس حتى بعد أن علم بذلك عن طريق صديقة مقربة من لويزة، فقرر الذهاب إليه كفرصة أخيرة لعل والدها يرأف لحاله ويتأكد من صدق نية عقبة في الزواج من ابنته، ولكن رد الوالد كان قاسياً هذه المرة، حيث استدعى الشرطة التي أرغمت عقبةً على التعهد بعدم المجيء إلى بيت الفتاة ومضايقة والدها.

الدا بلعيد يصر على عدم تزويج ابنته بذاك العربي عقبة شارحا موقفه لشيوخ المنطقة لكن كلامه جعل ذاك الشرخ بين القبيلتين يزداد.

حاول بلعيد الشرح والتبرير بالقول "إننا بذلك نحافظ على النسل الأمازيغي وهذا من حقنا، كما أن عاداتنا الأمازيغية تُحتّم علي ذلك"، ويختتم "الأمر انتهى بالنسبة لي" ما باليد حيلة.

والدة عقبة التي أرهقتها كثرة البكاء على حال ابنها كيف أن حياته أصبحت صعبة جداً، ولم يعد يستمع لأحد ويرفض مساعدة نفسه والرجوع إلى حياته الطبيعية ونسيان ما حدث.
عقبة أدمن الكحول ولا ينام إلا بمساعدة الحبوب المنومة التي أدمنها أيضاً، وأصبح يقضي معظم وقته سكراناً بعد أن يئس من الزواج بمن يحب، ولكن حالته التي هي بالتأكيد واحدة من حالات كثيرة لا يقيم لها المتمسكون بالتقاليد وزناً.
كذلك الحال بالنسبة للشباب فزواج الشاب من غير الأمازيغية يجعل منه محل استغراب واستهجان من المجتمع المحيط به، وبالتالي يتحتم عليه الزواج من إحدى قريباته.

مجتمع مختلف.

قصة أخرى تأبى الاضمحلال داخل أروقة مدينة سوق إبراهيم، أن والد الفتيات رفض تزويجهن من شباب عرب رغم كثرة الخطّاب المتوافدين إلى بيته من أجل بناته الحسناوات، وفي كل مرة كان يرفض بطريقة عصبية قائلاً "بناتي لسن للزواج".
إن ما يقوم به والد الفتيات أمر غريب جداً وغير منطقي، فهو يسافر ببناته كل صيف لمسقط رأسه في الجبل الغربي ويقوم بعرضهن على أبناء عمومتهن من الأمازيغ هناك، ويعود بهن بعد أسبوعين، ولكن حتى هذه اللحظة لم تتزوج إلا فتاة واحدة وهي أصغرهن، أما البقية فقد سبقهن قطار الزواج بسبب تجاوز معظمهن سن الأربعين.
الفتيات اللواتي حرمن من حقهن في تكوين عائلات لسن أفضل حالاً من لويزة التي تزوجت مرغمة، والتي همست في أذن أمها يوم ارتدائها فستان الزفاف "لن أسامح أبي أبداً على ما فعله". هي قصص من كدحوا من أجل الحب وبعيدين عن خرافة كوّنها الجهل أبغضها المجتمع قبل الدين.
بين الحرب والحب يبقى التناقض سيد الحكايات، العائلة العربية هي الأخرى تأبى الانصياع وراء نزوات ابنهم أسامة ليتزوج ليندا ابنة مقران القبائلي ليعود مرات عديدة لاستمالة أبيه الحاج الطاهر لمعرفة السبب لكن دائما

يجيبه: الحاج الطاهر **"محال لا نخليك تزوج القبايلية بنت القبايلي حوّس المرابطات راهم بزاف"** تتشابه القصص هنا في مدينة سوق إبراهيم بين العائلات العربية التي لا تريد الاختلاط بين العرب الذين يؤمنون بقدسية الأصل الشريف وبين الأمازيغ الذين يتشبثون بقدسية الأرض والهوية.

تخلد زنقة الحايرين إلى النوم إلا هو ينهض باكرا مرتديا زيه الرياضي، وألوان فريقه الذي يعشقه بجنون، مترصدا لأخباره ومتتبعا لأسراره، حاملا كومة الجرائد الصباحية ويتجول في أزقة سيتي "حركة"، يقابله كل صباح ذاك المشهد المتكرر على هذه البصيرة، الباشاغة سطمبولي، رجل في العقد السابع، ما زال يحافظ على ملبسه التركي، مفتخرا بأصوله العثمانية يرتشف القهوة على جانب الطريق حاملا تلك الجريدة باللغة الفرنسية، أما علبة السيڤار فلا تفارقه، يراه شاماطا فيسرع له عارضا عليه الجرائد والمجلات وآخر أخبار الفريق الذي كان سطمبولي أحد نجومه وبعدها رئيسا للنادي، ليجيبه واشمن بالو يا وليدي شاماطا، حنا بكري كنا نروحو في الباشي البيضة، أما الجيل تاع ذرك البيس والريحة والشعر طالع وفي لخر يخسرو بربعة ويقلك هذا هو البالون ايبيه على يامات زمان..." يتركه شاماطا متأسفا متأكدا بأنه سوف يحكي مطولا على تاريخه ومن الرياضة سينتقل إلى السياسة، شخص قتله الفراغ والروتين بعد تقاعده، سيتي حركة مليئة بالأزقة كل زاوية تخبئ قصة، يذهب شاماطا مسرعا بعد أن وصلته أنباء عن وصول عدد كبير من الناس إلى مقهى وفندق الڤايد، هي فرصته الوحيدة ليبيع ما تبقى له من الجرائد الصباحية، آيا الخبر، آيا الشروق، آيا الوطن، أهم قالوا شراو لاربيتر، أهم قالوا باعوا الماتش، هتافه المعهود لإثارة الجمهور، ينتظر يوم السبت من كل أسبوع لمناصرة فريقه المفضل، يجلب معه الأعلام وبعض الحلوى والفول السوداني ليسترزق بها مع الجمهور الذي يعتبره ملحا فوق المائدة، ليستمتع الجمهور برقصاته الإفريقية بعد نهاية كل شوط أو عندما يحس الجمهور بالملل، اهتمامه بأخبار فريقه جعله مصدرا لها لدى سكان مدينة سوق إبراهيم الذين في كل مرة يستفسرون عن مواعيد لعب فريقهم الحمرا والبيضا.

شاماطا، ابن الحياة يتيم الأبوين فقدهم في حادث طلق نار متبادل بين المتطرفين وعناصر الحرس البلدي، ليعيش شاماطا تحت رحمة الشارع، مسكنه، قوته، زنقة الحايرين تستقبل هتافه كل صباح وهو يقتحم مقهى الحرية ليبيع الجرائد الصباحية، يعيل أخاه الصغير "قوليح" صاحب العشر سنوات، يريده شاماطا أن يدرس وأن لا يعيد خطأ أخيه الكبير في مغادرة مقاعد الدراسة والارتماء في حضن زنقة الحايرين، ليخلف موح الزمبنطوط في بيع الصحف، يتخذون من بيت قصديري خارج المدينة مسكنا لهم يقيهم صقيع سوق إبراهيم صباحا، وحرارتها حين تسدل الشمس أنيابها، نجاته من جماعة الضمير الأعور ذات صباح باكر وهو يغادر بيتهم لمحطة القطار أين يجد الصحف تنتظره، أعاده إلى رشده فأصبحت تلك الرقصات داخل الملعب في كل مباراة تهدد حياته.

صباح الجمعة، مباراة هامة للفريق، الجمهور يكسر الخوف بحضوره القياسي، شاماطا يحضر سندويشات البطاطا المقلية، وسلة المكسرات، عمي موسى لعمى يخبره بأنه رأى حلما ستحدث كارثة فلا تذهبوا، مع أهمية المقابلة لم يكترثوا له وأصر الصغير والكبير على حضورها، عليلو كابيلو يشحذ الفريق والقدر يسخر من الجميع، طلقات عشوائية تردي الجميع أرضا، ويخر شاماطا صريعا بعد طلقة طائشة، عويل نساء يسمع من أعلى شرفات منازل زنقة الحايرين، يهرع الحضور ليلحقوا بمدينتهم التي تركوها فارغة، ليقابلهم الرشاش وهم هائمون بمغادرة الملعب، أسقط الجميع قتلى ومصابين، كارثة حلت بالمدينة، لعنة تليها لعنة لن يهدأ صفو سوق إبراهيم، وكأنه كتب عليها أن تدفع ضريبة جمالها جثثا، نفقد في كل مرة معالم المدينة وحتى مجانينها.

بَرَّقَعْ هوية مثقف.

يقال إن من الحب ما قتل، لكن يمكن للثقافة أن تقتل أحيانا، أن تعيش دوامة المثقف في وطن يكدس الثقافة والهويات في رفوف الأرشيف المنسي يمكن أن تموت بلا هوية، هي حكاية بَرَّقَعْ عاشق الفن والكتابة يحفظ قصص ألف ليلة وليلة وينسب لنفسه أبيات المتنبي والفرزدق، يمشي أسواق مدينة سوق

إبراهيم منشدا الأشعار بعد أن ضاع في تاريخ مدينة تأكل لحم أولادها، بعد أن كان بَرَّقَعْ من رجال الفن والأدب ضاع بعقله بعد أن فقد عقله وهو يستمتع بصوت الرصاص واخترقت إحداها لتجده اليوم بعد مرور سنين طويلة على تلك الحادثة في المحطة العتيقة لسوق إبراهيم!

رصيف مهترئ، عشب ملتو على حافة السكة الحديدية، هواء يابس، كأنها مقبرة يهودية منسية، وزهر أقحوان يغازل ضفاف حافة الرصيف معلنا بداية غزو الربيع، وظل يعتصر أسهم الشمس التى افترشت المكان، حيث يرسو سرب الحمام على ميناء المحطة ليلتقط فتات الخبز وبقايا الذرة التي ترمى من ثغر إحدى الحسناوات، وقطار يسير كأفعى وديعة بين القرى، صفيره كعواء الذئاب يسمع غثاء الخراف ليخبرهم أن الموت آت، وحمامة توزع بريد الوقت لتخبره كم الساعة الآن، وعمي لَعْرج يبيع الصور القديمة للمحطة، حاملا معه آلة تصوير عتيقة، وعمود كهرباء تلعب به الرياح، لتخبره حاله أن فصل الخريف قد حان، وحارس المحطة ينتظر منه هفوة الاقتراب من باب المحطة ليدفع برقع خارجا، حيث الذئاب البشرية تأكلني بنظارتها الكئيبة مثلهم، وإحدى الشقراوات ترمقه بنظرة مشينة لتضع عطرا فاخرا على جسمها منتظرة القطار القادم، أما هو يجلس وحيدا في مقعد خشبي مهترئ لا أحد يقربه سوى عجوز تلح عليه في كل مرة أن يأخذ منها ملابس ابنها المهاجر، لتجلس وتحكي قصصه القديمة لتغادر المكان منكسرة على صدى كلمات ابنها الأخيرة، هناك أيضا سائحة تلتقط صورا لبرقع وهو يكتب عن جنون القطار وقصصه الغريبة، كيف تغادر أسراب الناس المكان، كيف يودع الأحباب بعضهم، كيف تستقبل الأشجار تغير الفصول، وكيف للحاضر أن يسامرنا، وكيف يركض الماضي، كيف يركض الوقت على دقات الساعات.

لطالما كان برقع زميل الثواني وتلميذ الدقائق، ليُخرج الكمنجة من ملابسه الرثة، نصف يلبسه والنصف الآخر معلق على جانبي مقصورة قديمة، أعلنت الأشباح الثورة عليه لتخرجه، لكنه فاز بالاستقلال الوهمي "السامط يغلب القبيح" لتلتقطه كاميرا إحدى الصحف، لتعنون في صفحتها على

جدران الغرائب "متشرد يبهر المسافرين" صار ذاك المتشرد بشعره الكثيف، ورائحته المنتعشة برائحة البرد ودخان القطار، يبهر الجميع حتى النساء اللواتي كن ينفرن من رائحته، أصبح حديث العام والخاص، كان قبلها مهجورا كغرفة ذاك الحارس ومواقيت الانطلاق الليلي، الذي يوقظه على صفيره معلنا بزوغ يوم جديد.
بعد أن كانت ذكرياته تصاب بالحمى، وذاك العشب المنسي الذي كان ملهم أفكاره تم تقليمه، وذاك الزهر المصطف على جانب المحطة نزع وزرعت في مكانه أرقى أنواع الزهور، أما ذاك الرصيف المهترئ قد رصّ من جديد بالرخام الفاخر، حتى الجن جاؤوا يساومونه أي سحر تستعمله، حينها وقف على رصيف القطار ليسأل الحياة من أنت ويسأل القطار من أنت، وينظر إلى تلك الساعات التي تغير شكلها منذ طبع صحف تتحدث عن شخصه، عن متشرد يطرب القطار لتراقص المسافرين، جاء المدير يعاتبه بقسوته المعتادة، ويغازله بكلمات ليس معتادا عليها بعد أن فصله من عمله من أجل حسناء العيون، فلم يجد مهربا آخر غير المحطة يركن فيها، حينها كسرت صحفية جو التفكير بسؤالها من أنت! نظر إلى وجه المدير وقال من أنا لأقول لكم من أنا، أنا ابن الوقت، ورثت طباع المحطة وحنان البرد وقسوة ندى طباعكم، أنا هنا أعيش وأسكن وأهذي وأمرض وأتداوى وأمارس التعاسة بأصولها الفاخرة، أنا هو، هو أنا، لا أملك سوى شهادة وفاتي، مكتوب فوق الشهادة "أطعموا البائس الفقير" ولا أملك من حياتي سوى قصائد كتبتها بريق ناشف على مقصورة المنفى، أنا ابن وطن لا يقدس المجانين، ويعلي شأن الحمقى، لم أعد أعرف عنوان بيتي القديم، أصبحت كل الرسائل ترسل لي في عنواني الجديد "المحطة الجديدة، شارع المنفيين من الحياة" حيث القسوة والعيش المرير، مكملا مشاهد الحياة لتعنون الصحف من جديد متشرد ينتحر من على رصيف المحطة.
ألم أقل لكم إننا في وطن لا يقدس المجانين... تبا.

صباح تعيس آخر يبدأ من أرض النكبات، هنا تتأنق التعاسة لاستقبالك كعرس في يوم ماطر وعاصف أين تغلق الطرق بعد أن يفيض واد شلف

وتقطع المسالك في منطقة من مناطق الظل، ليخيم جو الحزن وصوت الغراب يدب في سماء القرية، كتلك الأرض الخاوية وبتلك الوجوه المتكررة تقاوم قسوة الحياة وكدر العيش بحثا عن البقاء، كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساءً في قرية الجهل والظلام، عاد مصطفى إلى بيته وهو يلطم خدّه حزنا بعد أن فاض الوادي على الكوخ الذي أخذ منه أربعة أشهر كاملة في تربية الدجاج ليعود إلى زوجته فاطمة تعيسا كئيبا جارا معه ذيول الخسارة، تنهاه الحسرة أن يتجرعها ليخبر زوجته ما حصل، ويلعن في كل خطوة يخطوها القدر المشؤوم وكذا الوادي الذي كان في الزمن القريب مؤنس سكان القرية ومصدر بقائهم ولكم أن تتخيلوا شقاء سكان قرية بدون مصدر للقمة عيش، وصل مصطفى بيته فسارعت فاطمة بجلب كوب دافئ كما كانت تفعل دائما، هنا جلس مصطفى على تلك الكنبة يفكر مليا في كيفية تجاوز هذه الخسارة، جلبت زوجته الكوب فلمحته صامتا غارقا في التفكير، سألته ويداها ترتجفان من البرد بعد أن فرغت القارورة من الغاز، مااا بالك اليوم يا زوجي العزيز أهناك خطب ما، بقي مصطفى صامتا شاردا لا يجيب، ثم قام وحمل قارورة الغاز خارجا ليعبئها، لكنه عاد مسرعا إلى البيت وأخذ علبة عود الثقاب وأضرم النار في جسده بعد أن ضاق ذرعا من أيامه السوداء، وكذا حالته الاجتماعية التي تزداد صعوبة مع انتظاره لمولوده الجديد، فبعد خسارته لمصدر رزق يعيله حجب الحزن تفكيره، ليقرر إفراغ ما تبقى من غاز على جسده وإشعال عود الثقاب، سارع سكان الحي لإخماد النار أمام دهشة فاطمة التي سقطت من هول المشهد، ولفظ زوجها أنفاسه الأخيرة في مشهد عاهدته المنطقة بعد أن يئس سكانها وعود حاكم البلدة في إبعاد مجرى الوادي لكن دون جدوى، لتبقى مشاهد الانتحار علامة مسجلة باسم قرية مصطفى وسكانها، الذين يفقدون معالم مدينتهم بعد كل غضب للطبيعة وكذا هروب ونزوح البعض من سكانها خوفا وهروبا من أيدي الخراب بعد أن صالت وجالت كتائب الإرهاب عبثا وتدميرا، وفي

صباح الأسبوع بعد أن دفنت الجثة استيقظ سكان القرية على آلات الحفر لفك الطريق مما خلفته الأمطار وفيضان الوادي، بعد أن أخذت حادثة الانتحار صدى واسعا في صحف الصباح "انتحار فاطمة بعد دفن زوجها المنتحر بأسبوع".

ألفية جديدة

"حاصر حصارك بالجنون، وبالجنون، ذهب الذين تحبهم، ذهبوا، فإما أن تكون أو لا تكون."

- محمود درويش

بدأت معالم ألفية جديدة تظهر، واغتربت معها أعوام من الرعب، والخوف المرصع بالمصالحة والوئام، وأضحى عدو الأمس صديق اليوم وحليف الغد، بل وأصبح سيد القوم وأحد زعمائه، وغادرنا أشخاص أحببناهم ودخلوا صفحات تاريخ زنقة الحايرين، ومدينة سوق إبراهيم، كانوا كلهم رهن الضياع، هذا أنا ما زلت أعرفهم، ما زلت أتذكرهم، مقاهي، محلات، وحتى الملاهي تخلد ذكراهم، لقد شربوا حليب البؤس ورضعوا أثداء الخوف و الجوع، مرت أعوام كأعوام الرماد على الزنقة، لا شيء غير توارث الخوف، صفعتهم الحياة فظنوا أنها خالدة، خوف من ألفية جديدة، سرنا إليها بقلوب حافية، بأفواه مندهشة، بأجسام عارية، عاركنا الفقد حتى فقدناه، لمن فقد، لمن كان منسيا، للمتجولين في زنقة الحايرين، لباعة الرصيف المتهرئ، إلى كوب الشاي الساخن في وقت نحس ببرودة أعصابنا ونحن نستقبل عام ألفين، للعائدين إلى المساجد، للعابدين على طريق ابتلت دما، للكادحين الباحثين عن عمل، عن قوت يومهم فتجدهم حيارى ينظرون إلى بعضهم البعض وهم يلقون بأجسادهم المثقلة على حائط الكنيسة المحترقة، للمسالمين الذين مشوا دون بندقية أيام الجمر والنار، لمن جابهوا أعاصير الحرب وقرعوا بأجسامهم المحفورة برصاصات طائشة أقعدتهم على هامش الحياة، ينتظرون بلهفة لفتة وطن جريح ما زال يلملم هو الآخر جراحه وندوبه، صرنا في حقبة السلام، جيل جديد يؤمن بضرب الحديد، أيامهم باتت مطمئنة، الطريق معبد، الرصيف تجدد ورصّ، كان قديما

يسرق أقدامنا كلما عدونا، نقفز خوفا من السقوط في بركة دماء، ما عدا ذاك الليل الرهيب، نستمتع بانقشاع السحب والدخان، قد صرنا نعرف أن للسماء نجوما، جحافل الأسئلة تهمس لي ليلة بأكملها، هل ستعود الحياة كما كانت، هل سنعيد رفع نواصي الأحلام من جديد، هل سنحظى بربيع أيامنا السابقة**!؟** والأجمل هل سنتحدث عن نكباتنا بكل فخر في نهاية الأمر، على أوتار رضا الطالياني نودع أغاني الشاب حسني، هناك خريف على وشك الولادة، وأضحت زنقة الحايرين تتأهب لنفض غبار عشرية، أعتمت عنها جمالها، حكاياها وقصصها، على وشك نفض الغبار والتلوث الذي نخر القلوب، استطاعت مدينة سوق إبراهيم أن تعلمنا كيف ننضج، نكبر والأهم كيف ننسى الألم، اشتقنا لطوابير الحليب المبستر، طابور انتظار الخبز من تلك المخبزة الوحيدة في المدينة، في القديم كانت النسوة يقمن بصنع خبز الدار أو المطلوع باللهجة المحلية، أما الآن ومع دخول جيل جديد، وزيجات جدد أصبح الكل ينتظر حتفه ويقود رقبته إلى مثواها اليومي، انتظار الحليب، انتظار الخبز وحتى في الموت تنتظر، ربما يؤجلون دفنك حتى يجدوا مكانا شاغرا لدفنك في تلك المقبرة التي تستقبل كل جمعة جحافل النسوة لسوق النساء، هنا النساء يبعن كل شيء، شعير، مرمز، عقاقير جلب الحبيب أو الزواج، ملابس مستعملة، وحتى إنهن يبعن الكلام، أسرار البيوت تجدها عند خالتي الطاووس فيلتف حولها النسوة لتبدأ بمواعظها التي لا تنتهي في كيفية السيطرة على زوجها وكأنها رضوى الشربيني، لينفض السوق على وقع تصفيقات حارس المقبرة، تنهض مدينة سوق إبراهيم يوم الجمعة باكرا إنه يوم عمل للكثيرين والكادحين، سوق الجملة عاد كسابق عهده بعد عشرية أصبح فيها شاهدا على مجازر فقدنا فيها الشباب وحتى الأطفال، واد بوقلي أصبح مفرغة يومية للنفايات بعد أن كان مفرغة للجثث التي ترمي بهم أيدي الغدر، الزامشي والتاغية أصبحوا مرملات لأصحاب النفوذ والسلطة، واستولى عليها الجبناء بعد أن توقفت أعمالهم وحرقت آلاتهم، أما زنقة الحايرين كعادتها تستفيق على هتافات أيا الساردين أيا الساردين، في مشهد متكرر تجد ذاك الطابور عند الخميسي بائع الكارنتيكا والمعقودة (أكلة شعبية

تصنع من مسحوق الحمص)، الخميسي ورث عمله من أبيه هذا الأخير لقي حتفه في هجوم على المدينة حين كان ذاهبا إلى محله المحاذي للكنيسة المهجورة، أين يسترزق بصنع الإسفنج والشاي، ليأتي بعده ابنه في النهار أين يبيع كل أنواع المأكولات الخفيفة فاست فوود، هنا الكل تعلم البيزنس، فتجد أحدهم يبيع الكاست وسيدي للأغاني المشهورة، وآخر يبيع الكتب المستعملة، وبمحاذاته بائع الشيفون أو الملابس المستوردة من أوروبا، هذه الأخيرة يكثر عليها الطلب خاصة أن "خرانتشو" بائع الشيفون أو البالة بلسانه الحلو وطريقة تعامله يجلب كل جمعة العديد من شبان المدينة وحتى من خارجها للبحث عن الموضة خاصة وأن سعرها يكون بنصف ما تبيعه محلات الألبسة، وشاب صحراوي يبيع الشاي على قارعة الطريق، ندخل عام ألفين وعشر ساعات، موح الشماريخ يحضر لإغراق السوق بالشماريخ والمفرقعات، الكل هنا ينتظر ذاك الأمل المرجو من بداية جديدة وعام جديد، أشخاص جدد، من يفك الحصار، من يمرض، من يهذي، ومن يجن، بتنا نعرف أي الأشياء زرعنا وبماذا تلطخت أيدينا جميعنا، تلوثت القلوب، الجموع، وطفح غريب أصاب النفوس، زرعنا قلوبا سوداء فاسودت وجوهنا والنواصي، فقدنا الأهل، فقدنا الثقة ودككنا الفزع في قلوبنا، سميت الشوارع بأسماء الوئام والمصالحة، فبقي الناس يحنون إلى الأسماء السابقة للشوارع والأزقة، حتى زنقة الحايرين أضحت اليوم شارع المصالحة الوطنية، فصرنا نتجول بين أشجان زنقة الحايرين الراسخة في ذاتنا ولوعة حاضر شارع المصالحة الوطنية، ومستقبل مدينة متخبط بين هجرة السكان واستيطان آخرين لها، كقوافل غجرية لا مستقر لهم يستوطنون خرائب الدهر وعشوائيات المدن، لم نستطع أن نؤمن أننا نجونا من تلك الأحداث المميتة التي تعرضنا لها على مدى عقدين من الزمن، منتقلين بين الموت والموت، بين الخطر والخوف، بين الأمن والذعر، لا أمل ونحن نبصر تلك السنين الحالكة التي استنزفت منا كل شيء، رمت بنا إلى فزاعة الأحداث الدامية، صرنا نقف في عراء الماضي وسط حقول الذاكرة المجروحة وتلك الروح التي نزفت آخر رشفة دم، نلقي نحن أجسامنا على ناصية الطريق،

ونرى بقسوة التجوال وعبثية الرحيل، صرنا أجسادا ناجية من أنقاض زلزال دموي، هل نستطيع أن ننسى من قتل ومن سفك الدماء، هل صحيح أن النفوس قد تهادنت وتصالحت، هل شفيت خالتي الطاوس من جمرة فقدان ابنها الباتريوت، هل سننسى نحن أنفسنا ونستقبل القتلة في أحضاننا، إلى متى يستمر هذا النفاق الاجتماعي، هل سنفك حصارنا بحصار مجنون أن نعيش مع من أهلكوا الحرث والنسل في مدينة واحدة وقد نتقابل في زنقة الحايرين ونتبادل الابتسامات و التهاني، هل ستندمل الجروح بعد رؤية فاتحيها يتجولون بكل أريحية، هل ستعيد لنا المصالحة بريق الروح لتلك المجامع الآدمية البائسة المتراكمة على الأنقاض، هل ستمحى تلك المشاهد المروعة التي انسدلت على أجفان الذاكرة، ذاك الركام المنسي في حظيرة المدينة لجثث لم تعرف بعد أصحابها، بالدم والدخان والدموع نراقب البؤس الظلم والشقاء ونسمع صرخات المدينة في قيثارات الريح، في أوراق الشجار في بكاء العصافير، في مدينتنا الخبز هنا ملطخ بالدم، وبين صراع البقاء وشغف العودة إلى ذاك الماضي الجميل، تستقبل عائشة العاملة بالبلدية أسماء الولادات الجديدة بفرح، فكثرت الأسماء المخلدة لبداية فك الحصار والعودة للديار، وئام، وئام، وئام أضحى هذا الاسم مطلبا حتميا لتسمية بنات المنطقة، وتسمية الشوارع الجديدة، لتبقى نشوة الماضي تنشد من على أفواه سرقت الحاضر وتعزف سيمفونية الأمل على الغد.

يوم العيد من شتاء عام ألفين، أول فرحة عيد بعد عشرية جافية، أوئدت فيها فرحة الأطفال وحتى الكبار، أول عيد يطل على مدينة سوق إبراهيم، العيد الكبير يعود مصبوغا بأصوات الكباش والماعز المستعدة لتقديمها قربانا وشكرا لله، التقت الجموع الساجدة في مسجد الفرقان، وتفرقت عند مفترق طرق زنقة الحايرين، هذه الأخيرة تجهزت بطاولات الحلوى والأكل، بابا سنجوق يبيع لحية بابا ونونو بينيطو يرسم على وجوه الأطفال، موح الشماريخ يغتنم فرصة العيد ليبيع ما تبقى له من مفرقعات لم يبعها في عيد الميلاد، بعد ذبح وسلخ الكباش يخرج الرجال إلى المقاهي فتكتظ عن آخرها ويعود "عمي جلة" الحكاواتي ليقص عليهم حكاية سيدنا إبراهيم مع ولده

إسماعيل، لينفجر عبد القادر سميكتا بالبكاء عند تذكر أخيه الذي ذبح رأسه وعلق جسده على شجرة الزيتون، رغم كل هذا الشرخ بين نسيان الماضي والذهاب إلى مستقبل أفضل لا تريد كتيبة الضمير الأعور أن ينسى السكان ما فعلوه فاقتادوا دق الديبوشي إلى أحد الجبال وفخخوه ومن ثم أرسلوه إلى وسط زنقة الحايرين وقاموا بتفجيره في مقهى المداني، فيعود سيناريو القتل والتفجيرات إلى المدينة، ليتبادر إلى الأذهان هل عادوا لينتقموا أم أنهم أذناب تريد إثبات ما خسروه من المصالحة الوطنية التي فقدوا منها العديد من المغرر بهم، لم يهضموا ذاك التسامح بين القاتل والمقتول، بين من كانوا في السابق أعداء، بين من استبيح وأباح، بين من خلق الذعر ومن عاشه، بين من شرب علقم الحياة ومن صنعه، وبين هذا وذاك، قصص لن تنسى، سنتذكر كل الآلام في لحظة حزن تداهمنا الذكريات من كل جانب، المجانين، المطورنين، زوايا زنقة الحايرين، الباعة الفوضويون، الكنيسة المهجورة، البنوك المنهوبة، السيارات المحترقة، الهجرة وزحف السكان، طرق محرمة، أرصفة تبكي دما، سوق أسبوعي ووصمة حزن في جبين الجبناء، رجال الشرطة، أفراد الجيش، كل لديه قصة حزينة أفضتها عشرية فقدنا فيها النفس والنفيس، في وطن لم نشهد فيه السلام وكأنه قلادة ذهبية يتقاتل عليها الناس لمن يحصل عليها، إنه وطننا نحن من نحيا فيه ويحيا فينا.

ألفية جديدة بدأ فيها عصر جديد، تفتح على العالم، عالم ضيق علينا الخناق وجعلنا في خانة القتلة والخطر، ونحن ضقنا ذرعا بما فعلت فينا عشرون سنة مضت، انتخب على رأس البلدية الشاب المثقف "برقع" ووضع سمير الدوزا نائبه، وعمل على إخراج المدينة من ضيقها، تزوج دق الديبوشي من جارته الحسناء وأنجبت خالتي الطاووس ابنا آخر وسمته باسم فقيدها، تغلغل السلم أرجاء المدينة وعاد الجبليون إلى أراضيهم، والمداشر عادت لصنع الزيتون والحمضيات وعادت زنقة الحائرين تنتظر الصباح لتشهد عدد المجانين الجدد والكادحين الذين يبحثون عن العمل وطلبا لقوتهم اليومي، وكأنهم خشب على ناصية الرصيف، يجالسون الوقت وينظرون إلى أنفسهم

بحيرة وحسرة على مستقبلهم الذي حرمتهم منه عشرية فلم يجدوا أين يدرسون ولمَ يتعلمون، وجوه تسابق الزمان للظفر بفرصة لركوب الحافلة الوحيدة المتجهة نحو العاصمة أو الأصنام من أجل العمل فبعضهم يعود والبعض الآخر يظل هناك وربما يبقى لسنين أخرى.

يحال موسى الشامبيط إلى التقاعد المسبق وبدون راتب كاف يعيل نفسه وحيدا ليبقى تعيسا بعد أن كرهه الجميع جراء تلك المآسي وخدمة نفسه واستغلاله لمنصبه كرجل أمن، ها هو اليوم بدون عمل يتجول بعكازه ورجله الاصطناعية داخل أزقة الحايرين باحثا عن عمل آخر يرفع غبنه ومحاولا استعادة مكانته المرموقة التي فقدها.

الآن هو جالس على طاولة مقهى لا يملك حق كأس قهوة سوداء في غفلة تفكيره يباغته صوت يعرفه، يرفع رأسه لأعلى فيجد يدا ممدودة تصافحه يرقبه موسى بدهشة ثم يمد يده ليصافح موح كلش ويأخذه بالحضن والدموع تتساقط على خده الشاحب من كثرة التفكير وعدم النوم، يجلس موح كلش أمامه ويرقبه موسى بنظرة دهشة غير متوقعة أن يجالسه شخص بعد تلك السنين وما فعله في حق الجميع، لم يجد الفرصة لإخبارهم بأن ما فعله كان بسبب تراكمات حزن فقد أمه وخالته ومعيله عمه بلقاسم بعد أن فقد أباه في صغره يتيما حيث جعل من قلبه كصنم لا يسمع ولا يرى سوى القتل والغدر والخراب.

يرفع موح كلش يده ويلوح على عينه:

- أين سرحت بخيالك يا موسى.

يرد موسى:

- اسمحلي أنا خوك راسي راه يخدم.

موح كلش:

- لا عليك يا موسى الدنيا جازت لازم عليك تنسى وتبدأ حياة جديدة .

- واش تنسى يا موح الدنيا ظلمتني بزاف خلاتني وحيد اك تشوف راني بلا خدمة وحالتي حالة.

- واش رايك تخدم معايا في الشانطي ولا الباركينغ ولا واش رايك نخدموا التجارة راهم يقولو فيها الدراهم.

- وعليها سماوك موح كلش مخليت حتى خدمة.

يرد موح كلش بنبرة حزينة:

- الدنيا لي خلاتني هاكا أمي الحزينة على وضعنا وخويا الطاهر المقعة حاب يزوج وختي العالية حابة دير مشروع باه ترفد روحها ودير التاويل لوليدها.

- إيه حقا واش تزوجت العالية ولا مزال .

- راهي تستنى فيك هههه.

يبتسم موسى ويرد:

- كلشي بلمكتوب خويا موح.

تبقى مدينة سوق إبراهيم امتدادا لتاريخ حافل بالأحداث، مدينة كتب لها أن تعيش تحت وطأة الرعب والخوف، لم تتوقف الأحداث ولن يتوقف التاريخ عند فاصلة العشرية السوداء، فالمدينة تحارب ما خلفه الاستعمار، ما خلفته أيدي الغدر، سكان بدون مأوى، بنية تحتية مهدمة، الأمية والجهل يعشش رؤوس الشباب والشياب، مدارس محترقة، أطفال غير شرعيين، أرامل، مختطفون، يتامى، وتراجع المستوى الاجتماعي للفرد والأسرة بشكل حاد، مع نزيف متواصل للموارد الطبيعية والاقتصادية، وانهيار قطاعات اقتصادية مهمة في البلاد، مثل السياحة، سنوات العشرية السوداء تلقي بظلالها على حي الطابية من خلال الظروف الصعبة التي يعيشونها في ظل غياب التنمية وانعدام أدنى المرافق الضرورية، والتي صاحبتها ظاهرة النزوح الريفي والهجرة الجماعية.

إن جميع من شاهد مناظر القتل إبان تلك الحقبة ما زال يعاني من مشاكل نفسية عميقة، عمق الجرح الذي لن يندمل ما دامت هناك أحداث مشابهة لتلك التي عايشوها في الجزائر على يد الإرهاب الأعمى.

لغاية الآن ما زالوا يدفعون ضريبة القلق والخوف وفقدان الثقة من جراء العنف الذي تعرضوا له، دون أن ننسى تدهور المستوى الدراسي عند

الأطفال، والذي ساهم كثيراً في تدني مستوى معيشتهم بشكل كبير نتيجة ترك مقاعد الدراسة خوفا من الموت. وكثير ممن يعانون الأمراض المزمنة اليوم هم ممن عايشوا تلك السنين، لتبقى زنقة الحايرين اليوم إحدى المناطق التجارية، محلات، فنادق، مقاهي، تلك الكنيسة أصبحت قاعة للحفلات، الطريق عبد والنفوس ركنت لجيل جديد، نسينا من خلاله العشرية وأصبحنا نعيش اليوم بيومه، تلك المقابر نسيت ونسي السكان زيارتها هذه سنة الله في خلقه، خلق الإنسان لينسى، ليعيش لغد جديد لحياة جديدة.

تغيرت السنوات، رحل من رحل، وأرخت الأيام ستائرها، وتلك الذكريات أضحت على مرمى حجر كل زاوية من زوايا زنقة الحايرين، هذه الأخيرة تغير اسمها إلى شارع المصالحة الوطنية، عاد العسكري إلى أمه، وانتهت الحرب واستكان الأمن والأمان، فعادت زنقة الحايرين مكانا للتجارة وموطن الباحثين عن العمل والأمل، تلك الحواجز الأمنية خففت والبعض منها حذف نهائيا، سويت وضعية موسى الشامبيط وأخذ موح كلش ودق الكابران حقوقهم، أزهرت حقول بؤس كاملة ولم يزهر قلب عمي موسى بعد، تلك المقابر اكتظت عن آخرها، والسي جلول حفار القبور تعب فورث ابنه الحرفة، ونحن رحنا نعشق الوطن من جديد بعد أن ضعنا في دواليب حرب لا نعرف من يقتل من، خياط الحي عاد إلى عمله، وحليمة العجوز استوطنت دار العجزة فرحة وذاك المغترب أضحى يزور أمه مرات كثيرة في السنة، أما أنا فلم أصدق أن أنجو من تلك الأحداث القاتلة على مدار سنين كثيرة، وقسوة الرحيل بين التجوال وعبثية العيش، تلك الذاكرة لا زالت مجروحة من تكالب أيدي الغدر على زنقة الحايرين، ربما شفي الوطن لكن مدينتي لا تزال تكنس الدماء وتلملم الجراح، ربما تطور الوطن لكن لا زالت مدينتي تنفض غبار الأرصفة وتغلق حفر الطريق، ربما اخضر العالم، لكن تلك المدينة لا تزال غارقة في الأبيض والأسود.

لتغدو أرواحنا أوطانا متعبة إذا ما احتل الشقاق قلوبنا، إذا ما شرد الأمل عيوننا نحتسب من ماتوا من اختطفوا شهداء عند الله، ونحتسب هذا الوطن موطن الثورة والشهداء، نلتقي بعد قليل بعد عام بعد عامين وجيل، ورمت

في آلة التصوير عشرون حديقة والعصافير ومضت تبحث خلف البحر، عن معنى جديد للحقيقة، وطني حبل غسيل لمناديل الدم المسفوك في كل دقيقة.

واقف تحت الشبابيك
على الشارع واقف
درجات السلّم المهجور لا تعرف خطوي
لا ولا الشبّاك عارف
من يد النخلة أصطاد سحابة
عندما تسقط في حلقي ذبابة.
وعلى أنقاض إنسانيتي
تعبر الشمس وأقدام
العواصف
واقف تحت الشبابيك العتيقة
من يدي يهرب دوريّ
وأزهار حديقة.
اسأليني: كم من العمر مضى
حتى تلاقى
كلّ هذا اللون والموت
تلاقى بدقيقة؟
وأنا أجتاز سردابا من النسيان
والفلفل والصوت النحاسي
من يدي يهرب دوريّ..
وفي عيني يناوب الصمت عن قول الحقيقة!
عندما تنفجر الريح بجلدي
وتكفّ الشمس عن طهو
النعاس
وأسمّي كل شيء باسمه
عندها أبتاع مفتاحا وشباكا

جديدا.
هل يذكر المساء
مهاجراً أتى هنا... ولم يعد إلى
الوطن؟
هل يذكر المساء
مهاجرا مات بلا كفن؟
يا غابة الصفصاف! هل
ستذكرين
أن الذي رموه تحت ظلك
الحزين
كأي شيء ميت إنسان؟
هل تذكرين أنني إنسان
وتحفظين جثتي من سطوة
الغربان؟
أماه يا أماه
لمن كتبت هذه الأوراق
أي بريد ذاهب يحملها؟
سدّت طريق البر والبحار
والآفاق...
وأنت يا أماه
ووالدي، وإخوتي، والأهل،
والرفاق
لعلّكم أحياء
لعلّكم أموات
لعلّكم مثلي بلا عنوان
ما قيمة الإنسان
بلا وطن

بلا علم
ودونما عنوان،
ما قيمة الإنسان؟
كلمات قالها درويش عن وطنه، فكم تتشابه الكلمات في وصف الأوطان، احتضنت فلسطين والجزائر الحزن والدم وتقاسمتا الدمار والقنابل إن سقطت في الخليل فحتما يحزن أهل سوق إبراهيم.

بين روعة البداية ولهفة النهاية تجتاح كياني أسئلة كثيرة هل أضيف جزءا واحدا؟ فقط ثم سأتوقف.
توقفت أفكاري لم أجد مخرجا آخر غير أن أرمي أوراقي المبعثرة على المكتب وأخرج لألعن واقعي المرير، حملت رواية البؤساء للكاتب فيكتور هيغو قاصدا حديقة الحرية في وسط مدينة العطاف، أقرأ وأتمعن اللحظات التي تكون فيها الروح جاثية على ركبتيها مهما كان وضع الجسد.
أفكر في نهاية لرواية لم أجد لها حتى العنوان، هي ليست المرة الأولى التي أغير فيها فصول الرواية وربما أضيف فصولا جديدة.
تأخذني روحي التعيسة لإكمال الفصل الأخير من الرواية التي أمامي.
ما الشيء الرخيص اليوم؟
كل شيء غالي.
ليس من شيء رخيص غير آلام الناس.
إن آلام الناس مجانية.
أفاقتني من سهوي لطمة مدوية على قفاي من برقع، قفزت مندهشا من لطمته فابتسمت وقلت له لا عليك هذه ضريبة الكتابة عن رجل يسكنه الجنون ويراقب السماء كدرويش ينتظر مائدة من السماء...
نظر إليّ بازدراء وقال لي انتظر دقيقة سأعود حالا، ذهب برقع وعاد إليّ بمخطوط، نفضت عنه الغبار فوجدته معنونا بزنقة الحايرين.

العطاف 16 ديسمبر 2021